

يا مريم .. أنا اعتذر

سماح حافظ

تمهيد

بعض مواقف الحياة هي بمثابة دروس جيدة ، وبعضها

معاول هدم ، وبعضها زهور في طريق العمر ...

الفصل الأول

يا مريم

أنا اعتذر

اعتذر

اعتذر

موتك كان فكرة

ممتنعة على العقل

موتك كارثة

ولكن .. لم يكن منه مفر ...

هكذا بدأ الأمر ، قرأت تلك العبارة في إحدى صفحات
الفايسبوك ، أثارت فضولي بشدة ، من مريم ومن صاحبة
الصفحة ، وكيف ماتت مريم !!

نسيت أن أعرفكم بنفسي ..

أنا امرأة في الثلاثين من العمر أعيش في عالمين متوازيين.
عالمي الأول هو زوجي وأطفالي وبيتي ، تخرجت من كلية
الآداب ولكنني لم أعمل ، تزوجت سريعا بعد التخرج ،
زواج تقليدي و حياة صاخبة بين ثلاثة أطفال رائعين . أطلق
عليهم لقب الغام أرضية ، لغم أول ولغم ثاني ولغم ثالث ،
هكذا بترتيب أعمارهم ، ففي أي لحظة وبأقل ضغط
ينفجرون في الصراخ والشجار وتحويل البيت إلى ساحة
معركة حربية وزوجي غائب معظم الوقت عن المنزل ، لهذا

فأنا قوات التهدة وفك الاشتباك وحل النزاعات الوحيدة
الموجودة بالببيت ، وعلّي دائما أن اتسم بضبط النفس حفاظا
على حالة السلم والأمن الداخلي . هذا ما توصلت إليه بعد
فترة عصبية أو شكت فيها على الانهيار العصبي .

انجبتهم تباعا دون هوادة أو محاولة لفصل الأجيال ، لم أكن
أعرف أنني ودون أن أدري قمت بصنع كماشة بشرية حول
عقلي لا فكاك منها ، وأصبحت تلك المرأة المجنونة التي
تصرخ ليلا ونهارا وتجري وراء هذا الذي أسقط زهرية
الورد أرضا فهشمها ، وهذا الذي يلعب بالطعام فيسكبه على
صدره ، وذاك الذي يروي الأرض بنهره الجاري الذي لا
يجف نبعه . ألملم هذا وأغسل هذا وأنظف هذا ..

ودرت في تلك الدائرة حتى شعرت بالإرهاق والضعف ،
وكان لابد من نقطة نظام لأستعيد فيها توازني وأعيد ترتيب

داخلي وأجد نفسي الضائعة ، بالطبع في تلك الفترة كان
عالمي كله محصورا في الألغام الثلاثة وعلى هامشهم زوجي
محمود ، فغيابه الكثير جعله كالضيف يأتي مبتسما ويرحل
مبتسما ، موناليزا تزورنا في المساء وترحل في الصباح .
هو طيب جدا وكريم وبشوش ، كلما رأته بابتسامته تلك وأنا
أحكي له ما فعله أولاده طوال النهار وهو يكرر بين كل فقرة
وفقرة (صبرا ، هم صغار ، تحملي ، اعذرك ، نعم هذا
صعب) أتذكر حينها عبارة عادل إمام في إحدى مسرحياته
" ناس طيبين اوي يا خاااال "

تنتهي حلقة عرض المشكلات بربته على الكتف ومسحة
رقيقة على الشعر وابتسامة الموناليزا

لهذا كان لابد أن أنقذ نفسي وحدي ، فكرة أن أعيش في هذا
الجنون المستمر كادت أن تدمرني وتفصلني عن كل ما

حولي ، فلا اهتمام بمظهري ولا قراءة أو ثقافة من أي نوع
أو تواصل مع أصدقاء ولا زيارات عائلية إلا في المناسبات
والتي كانت تنتهي دائما بكارثة ، إما أن يحطموا شيئا في
بيت أمي أو أختي ، أو يتشاجروا مع أولاد أختي أو أولاد
الجيران على الدرج ، أو اتشاجر أنا وأختي بسبب طريقتها
المستفزة في تعليمي كيف أربي أولادي وأنني أدلهم بشكل
زائد عن اللزوم ، ولا أعرف أين هذا التدليل وأنا لو

استطعت أن أصعقهم بالكهرباء لفعلت !!

ظلت هكذا حتى جاءت صديقة تزورني ، صديقة من الزمن
الجميل ، من أولئك الصديقات اللائي لا تزورهن ولا تتصل
بهن ولكنهن يأتين إليك ويتصلن بك ويعرضن خدماتهن أيضا
دون مقابل ، ربما السبب أنها لم تتزوج بعد ولم تدخل أي
حروب مع ألغام أرضية . تعرفت عليها يوم زفافي ، كانت
هي الفتاة التي قامت بعمل الصبغة لشعري . تكلمنا معا

ووجدتها فتاة طيبة وودودة ومرحة فأصبحنا صديقتين برغم
أنني أكبرها بخمس سنوات تقريبا .

تبادلنا أرقام الهواتف ، يقبع رقمها بكل احترام وخمول في
ذاكرة هاتفي معظم الوقت ، ورقمي عندها هو الذي يعمل
دوما ، تتصل هي لتسأل عني وتأتي لتزورني ، أراها دائما
ركن دافئ في محيطي البارد .

أحبها حقا وأحب زياراتها ، فلا أخجل منها أبدا ، حتى عندما
تزورني وتراني وأنا أعصب رأسي بمنديل لحماية شعري
من غبار التنظيف ، أو وأنا أرفع أطراف البنطال وأشمه
حتى يكاد أن يُصبح شورتا من أجل أن أمسح البيت ولا
أصاب بالبلل ، أو حتى وأنا أتناول غدائي وقوفاً في المطبخ
وهي أحيانا تشاركني فيه ، تسخر دائما من هذا الوضع

وتقول " هذا الوضع العمودي يجعل الطعام يصل إلى الركب

، أصبح عندي كرش في ركبي بسببك " .

في أحد الأيام وأنا أشكي لها من أنني على وشك الانفجار

والجنون قالت :

_ ما رأيك في أن تدخل عالم الفايسبوك ؟

قلت بدهشة:

_ الفايسبوك !!

_ نعم ، لا تقولي أنك لا تعرفيه

_ نعم أعرفه لست بهذا الجهل ، ولكن ماذا سأفعل فيه ؟

وكيف سيكون هذا علاجاً لأعصابي ؟

_ الأمر بسيط ، أنتِ تحتاجين للتغيير ، يجب أن تخرجي من

البيت وتبتعدي عن الأطفال ومشاكلهم قليلاً ، ولأنك لا

تستطيعين ترك الأطفال وحدهم في البيت فعليكِ أن تكوني

خارج البيت وأنتِ بداخله ، الفايسبوك سيجعلك تغيرين من
نمط حياتك وستقابلين آخرين وتقرئي أشياء وتتعلمي أشياء
أخرى ، وكأنك خرجتِ من البيت دون أن تخرجي بشكل
فعلي . سأعمل لكِ حساب وأعد لكِ صفحة وجربي ولن
تخسري شيئاً ، وإن لم يعجبك أغلقي الصفحة أو اتركها
وكانها لم تكن .

حسنت أمري سريعاً وقلت :

__ حسناً ، أوافق

__ عظيم ، من الغد ستكونين عضوة جديدة في هذا العالم

الافتراضي .

وبالفعل دخلت هذا العالم الجديد ، في البداية لم أفهمه

ووجدت بعض الصعوبات في الاندماج والتفاعل ، ولكن من

خلال صفحة صديقتي بدأت في التسرب نقطة نقطة داخل
هذا العالم .

حتى أصبح لي صديقات ومتابعين ، كنت أكتب منشورات
مسروقة ومقتبسة في البداية كما يفعل الكثيرون ولكن
بالتدريج بدأت أكتب ما يجول بخاطري ، لاقى هذا استحسانا
كثيرا ومجاملات أكثر ، لا يهم ولكن المهم أنني بدأت فعلا
في التعبير عن نفسي و خلق عالم موازي لي مختلف عن
العالم الذي أعيشه ، هذان العالمان لا يتقاطعان بأي شكل ، قد
أمزح مع إحدى صديقاتي وأنا أحادثها وفي نفس الوقت أقف
في المنتصف بين أحمد ومروان لأحجز بينهما لأن أحمد
مصمم على فقأ عين مروان لأن مروان وضع إصبعه في
عين احمد بطريق الخطأ وهو يحاول ضرب باسل الذي مزق
له شارب قطته اللعبة . في خضم تلك المعركة أكتب
وأضحك وأنشر وأعلق ولا أحد يدري بما يحدث هنا أو هناك

، حتى بدأت أشعر بأن عقلي أصبح كوجه المزدوج في
كارتون مازنجر . لم أكن أعرف في البداية هل هذا افادني
وخفف من الضغط الذي أعيشه ، أم هو ضغط آخر خفي
يتسحب ببطء ليجد الفرصة للانقضاء على أعصابي مرة
واحدة فيدمرها . لا نفهم الأشياء في بداياتها ، كما لا نفهم
العلاقات في بداياتها ، البدايات دائما خادعة .

مر عام تقريبا وأصبحت كائن فيسبوكي مزدوج مع كائن
بيتي مناضل من أجل الحياة ، واستمرت ابتسامة الموناليزا
في الاتساع .

بالطبع كان يوجد هؤلاء الرجال المتربصون في الفيسبوك
لكل تاء مربوطة او تاء مفتوحة مؤنثة ، والذين اصطلح
الجميع على تسميتهم بالزاحفين . ولكن كنت حريصة دائما

على البعد عن كل تلك الكائنات المقززة ، احتراما لديني
ونفسي وزوجي الطيب .

مررت بمواقف كثيرة لا داعي لذكرها ، حتى وصلت إلى
تلك العبارة التي قلبت حياتي رأسا على عقب ، فضولنا
أحيانا يقودنا إلى حافة جرف عالي ، ومن لم ينتبه في اللحظة
الأخيرة سيسقط بالتأكيد .

يا مريم أنا اعتذر .. اعتذر .. اعتذر
موتك كان فكرة ممتعة على العقل ..
موتك كارثة .

ولكن لم يكن منه مفر ...

هذه الكلمات جذبت فضولي كالمغناطيس ، كانت مكتوبة في
صدر صفحة لفتاة لا أعرفها في خانة صف نفسك الموجودة

في كل الصفحات ، الكلمات أثارت خيالي وجعلت مائة قصة
وحكاية تتشكل في عقلي تفسيراً لهذه الكلمات . أقلب في
المنشورات فأجدها كلها حزينة ومكتوبة بأسلوب جميل ،
صاحبة الصفحة تمتلك موهبة أدبية واضحة ، أعشق الكلمات
. قبل زواجي لم أكن أتوقف عن كتابة الخواطر وقراءة
الروايات . كنت أعتقد أن حياتي ستكون بعد الزواج رواية
رائعة ، ولم أكن أدري أنها ستتحول لمسرحية هزلية ، أو
بمعنى أدق كوميدياً سوداء .

أحياناً كثيرة أقول لنفسي أن العيب في أنا ، لم استعد بشكل
كامل لأن أكون زوجة وأم ، أو أنني خدعت نفسي بفكرة ما
عن الزواج وعندما وجدت الواقع مختلفاً عن تلك الفكرة
توقفت عن التفكير واسقطت يدي جانبا وسرت في واقعي
كالأسيرة محنية الرأس والروح دون أدنى مقاومة أو محاولة
للتغيير ، كثيرات مثلي . ولكن بالتأكيد يوجد من استطعن

الاتزان والسير على الحبال دون سقوط ، فهموا واستوعبوا

قواعد اللعب سريعاً ، وابتكروا هم قواعد جديدة فاستبدلوا

اللعبة القديمة بلعبة جديدة خاصة بهم حققت لهم ما يريدون

من توازن للاستمرار بهدوء ونجاح . نعم هو ذلك

لكنني سرعان ما انفضت تلك الفكرة ، وأقول لنفسي : لا لا لا

أنا لست المخطئة ، الألغام هي السبب وابتسامة الموناليزا

مشتركة معهم في التآمر ضدي .

سعيت تحت ضغط فضولي إلى أن أتعرف على تلك الفتاة

صاحبة العبارة الغامضة ، أرسلت لها طلب صداقة ، وبعد

أن وافقت هي عليه لم أكلّمها مباشرة ، تكتب بجوار اسمها

عبارة (لا للدردشة) ومن خلال صفحتها فهمت أنها منطوية

جدا ، حتى أنها لا ترد على التعليقات وتكتفي بعلامة
الاعجاب .

يحتاج الأمر لخطة اقتحام ، الهجوم المباشر سيكون خطأ
بالتأكيد .

بدأت أولاً في لفت نظرها بالتعليق على كل منشوراتها
بإعجاب .

ثم بنكز كل فترة ، ثم إشارة لها على منشور رائع في إحدى
الصفحات أعلم أنه سيعجبها . مرت أيام وأنا اتبع تلك الخطة
وأخيراً فطنت إلى أنها لن تأتي بنتيجة ولم استطع أن أصبر
أكثر من هذا ، فألقيت بالعقل جانباً واندفعت إلى الرسائل
رأساً .

_السلام عليكم

مساء الخير عزيزتي ريم ، هل تسمحين بأن أتحدث معكِ قليلاً ؟

وانتظرت الرد ، الذي لم يأتيني إلا في اليوم التالي ، كان عبارة مقتضبة " مساء الأنوار ، نعم تفضلي " كنت أتمنى ترحيباً لأتشجع أكثر ، ولكن هذه بداية على كل حال .

_ أعرف أنكِ لا تحبين التحدث في الخاص ولكن هناك شيء لفت نظري بشدة ولم استطع كتمان فضولي بشأنه .

(بعد أن ألقيت بخططي جانبا قررت أن أكون مباشرة وواضحة وأن اتجه رأساً إلى ما أريد)

_ وما هو هذا الشيء الذي أثار فضولك ؟

_ من هي مريم ؟

فترة صمت ثقيلة ثم جاءني الرد

_ توأم روعي .

_ كيف ماتت ؟

_ يبدو أن فضولك شديد بالفعل !

_ نعم هو كذلك ، تلك العبارة المكتوبة في واجهة صفحتك

مؤثرة لدرجة أنني لم أتوقف عن التفكير فيها منذ رأيته .

_ ربما لأن للموت غموضه وتأثيره الخاص ، جذبتك كلمة

الموت وما حولها من هالة غموض .

_ نعم ، واعتذارك أيضا جذبني .

_ للأسف لن استطيع التفسير ولا أريد التحدث في هذا

_ لو كنت فعلا لا تريد التحدث فيه ماكنت كتبت عنه هكذا

في صدارة صفحتك ليراه الجميع ، أحيانا نريد أن نروي

ولكن نحتاج لمن يبدأ بالسؤال .

_ لم أكتب تلك العبارة لجذب أشخاص فضوليين ليسألوني عنها ، كتبتها لأنني رغبت في هذا ، ولا أظن أنني أحتاج لأي تبريرات لما أكتبه أو أفعله .

_ لم أطلب منك تبريرات ، ولا أظن أن المسألة تحتاج تلك الحدة منك ، أعلم أن فضولي خطأ ، ولكن كلنا نخطئ أليس كذلك ؟

_ نعم ، ولكن ليس كلنا نستمر في الخطأ . حاولي أن تصحي اخطاءك وتكبتي فضولك هذا أفضل .

_ المفترض أن أعتبر هذه إهانة ، ولكنني لن أفعل ، لا أظن أنك من هؤلاء الذين يتعمدون جرح مشاعر الآخرين . شكرا لكِ واعتذر عن تطفلي .

كتبت هذا وصمت ، شعرت بخجل شديد ، لم أتعرض لمثل
هذا الموقف من قبل ، ماذا دهاني فعلا لأفعل هذا !! تبا لي
ولفضولي الغبي .

فجأة وعلى غير توقع جاءتني رسالتها :

_ أنا التي اعتذر عن حدتي وكلماتي القاسية ، في الحقيقة
لست بهذه القسوة ، ولكن الكلام في هذا الموضوع يؤلمني ،
وربما تكونين على حق ، في أنني كتبت تلك العبارة لأصرخ
بها وأعبر عن كل ما يجيش بداخلي ، احتاج لمن يشاركني
هذا الألم حتى ولو لم يفهم مصدره وأسبابه .

_ وكيف يحدث هذا ؟ لن تجدي من يشاركك دون ان يفهم

_ كم عمرك ؟

_ ثلاثون عام

_ لست صغيرة ليتلاعب بك الفضول هكذا

_ إهانة أخرى !!

_ عفوا لم أقصد إهانتك ، ولكن من الصعب أن أشرح لك

_ وأنا لن أسألك ثانية

_ غضبتِ ؟

_ نعم

_ أشعر بحسن طويتك ، ولكن في الحقيقة لست أول شخص

يسألني عن تلك العبارة ، وسئمت هذا السؤال .

_ لماذا لم تحذفيها إذا طالما انها تسبب لك هذا الإزعاج ؟

_ لا أعرف .

_ بل تعرفين ، فأنت من داخلك ترغبين في أن يعرف

الجميع بالأمر حتى ولو بصورة مبهمة ، كما قلت لك

تحتاجين لمن يشاركك فيه ، نحن كائنات تكره الوحدة

وتخشى الانعزالية برغم أننا احياناً كثيرة نختارها ، ليس حباً
فيها ولكن استسلاماً لها بعد كم من الخيبات والصدمات

_ هل درستِ علم النفس ؟

_ لا ولكني إنسانة مثلك مرت بالكثير

_ ما اسمك ؟

_ ندى ، وأنتِ ؟

_ ريم كما في الصفحة

_ لا اظنه اسمك الحقيقي

_ بالفعل ليس اسمي الحقيقي ولكنني أحبه

_ تعترفين بحبه هكذا دون حياء ؟

_ اضحككتني . لا أحب أن اكتب تلك الهاء الإلكترونية

تعبيراً عن الضحك

__ أنا أيضا لا أحبها ، ولكنها تكمل نواقص التواصل ، فكيف

سنعرف أن الطرف الآخر يضحك بدون ملامح ! كما أننا لم

نكن سنعرف مريم لولا أنك كتبت اسمها بتلك الطريقة

الحزينة

__ لا أظنك ستستسلمين بسهولة ، نحلة مريم تطير وتطن في

رأسك دون توقف .

ابتسمت من تعبيرها و شعرت بأنها بدأت تفتح لي سردابها .

__ من أطلق النحلة عليه إيقافها

__ وإن لم يفعل ؟

__ لن يكون هناك عسل

__ ماذا تقصدين ؟

__ اقصد أنك لن تشعري بالراحة إن لم تتحدثي مع أحد في

هذا الموضوع ، وأنا لن أشعر بالراحة لو لم أعرفه

_ تضحكيني فعلا ، خفة ظلك تشفع لك فضولك

_ وحنك لن يشفع لك صمتك ، لن اجبرك على التحدث ،

ولكن تخيلي امرأة مسكينة تطرق بابك وتستجدي معلومة

لتشبع بها فضولها ، هل من الرحمة تركها هكذا جائعة ؟

_ أنتِ مجنونة بشكل كامل

_ لا أظنك مختلفة عني

_ لست فضولية

_ لماذا إذا سألتني عن عمري وإسمي ؟ لما من الأساس

أجبتِ على رسالتي !!

_ سألت عن عمرك واسمك لأعرف من يحادثني ، وأجبت

على رسالتك من باب الذوق ، أنتِ صديقة عندي ، وأعرفك

من خلال تعليقاتك ومنشوراتك وتلك المواضيع التي كنتِ

تشيرين لي عليها ، في الحقيقة أثرتِ فضولي وربما لو لم
تكلميني أنتِ لكنت بدأت أنا .

ابتسمت ، لم أتوقع أن تكون خطتي البلاء نجحت بالفعل
دون أن أدري ، كلنا يجذبنا الاهتمام بشكل أو بآخر .

_ تسعدني صراحتك واعترافك بأنك تمتلكين فضولا مثلي
_ صراحتك ووضوحك أجبراني أن أفعل .

_ شكرا لكِ ، وأتمنى ألا أكون قد اطلت عليكِ ، ولكنني
سأظل أفكر في مريم .

_ جميل أن يشاركني أحد التفكير فيها

_ حسناً عزيزتي ، دمت بخير

_ ولكِ الخير

وانتهى حوارنا هكذا دون أن أعلم شيئاً أو أن اصل لشيء ،
ولكن شعرت براحة كبيرة لهذه الفتاة المجهولة وجذبني أكثر

سرّها الغامض . لا تقولوا عني تافهة ، ألم يخطر في بالكم
مقطع أغنية وظللتم تحاولون تذكر من يغنيه وتجهدون عقلكم
في التذكر ؟

ألم تمرّون مرة على منزل ما وأخذتكم الأفكار حول ساكني
هذا البيت ؟

ألا يشدكم سماع الأسرار والبحث عن أخبار الفنانين وقراءة
الحوادث الغريبة ؟ أشهر البرامج هي تلك التي تتحدث عن
الجرائم والفضائح والأسرار . كلنا نمتلئ بالفضول ، فلا
تندهشون من فضولي فهو شقيق فضولكم ومن نفس تلك
العائلة الخالدة ، وليس ابنا لقيطا لتنظروا إليه في ازدياء !

لم أحادثها في اليوم التالي ، وحاولت أن اشغل ذهني بالغمي
الثلاثة ، جلست مرة أتحدث معهم بشكل عقلائي لندناش

أوضاعنا الدموية في البيت ، كنت قد قرأت مقال لطبيب يتحدث فيه عن سيكولوجية الطفل ، ويقول " إن تحدثنا مع الطفل وكأنه أكبر سناً ، سندفعه بطريقة لا يشعرها هو إلى أن يكون بالفعل أكبر في التفكير وسيزداد ثقة بنفسه وسنحصل منه على نتائج ايجابية رائعة " . وبدأت فعلا معهم الحوار :

_ أحبائي أريد منكم طلب .

سلطوا أنظارهم عليّ في انتظار طلبي ، والذي لم أكن أعرف ما هو تحديدا ، ولكنني بدأت على أي حال .

_أنتم الآن كبار ، وتكبرون كل يوم ، لهذا أريد أن استشيركم في بعض الأشياء التي تخص حياتنا .

قال اللغم الأوسط بصوت عالي :

_لكنك قلت أنك تريدين طلبا وليس استشارة !

نظرت له بغیظ :

_ لا فرق بین الطلب والاستشارة

_ بل یوجد فرق کبیر ، لكل كلمة معنى مختلف قالت مس

عزة هذا .

_ مالنا ومس عزة الآن ، قلت لك لا فرق بین طلب

واستشارة ، أطلب أن أستشيرکم ، هل یرضیک هذا ؟

فوجئت بالأصغر یقول :

_ طبعا لا یرضینا ، نحن وافقنا على طلب واحد وتركنا لعینا

من أجل طلب واحد ، لا طلبین .

وتحولت المناقشة الخلاقة لمباحثات مرادفیه حول معنى

کلمتي طلب واستشارة ، وأنهما طلبان وليسا طلبا واحدا

هنا لم أتمالك أعصابي وألقیت بكل ما قرأته جانبا ، بلا

سیکولوجية بلا استهبالية ، وانفجرت صارخة :

_ احرص أنت وهو ، لا طلب ولا استشارة ما أقوله الآن هو

أمر لكم . منذ الآن ومن تلك اللحظة ، أي خروج عن النظام

أو مشاجرات تافهة أو فوضى سيكون عقابه شديد ، من

يخطئ سيتم حرمانه من المصروف أولاً ومن اللعب ثانياً.

ثم قلدت ملامح الزومبي وأنا أقول بطريقة مرعبة :

_ وربما من الحياة ثالثاً .

نظر لي أبنائي بدهشة وكأنهم ينظرون إلى معتوهة ، ثم

جذب اللغم الأكبر شقيقه وهو يقول :

_ ماما هذا ليس مضحكا ، عطلتينا عن اللعب يكفي هذا .

وذهبوا ليلعبوا وتركوني وحدي كعبيط القرية بعد أن أشبعوه

الأطفال ضربا بالحجارة . تباً

هي معركة خاسرة من البداية وعليّ أن أتقبل الهزيمة بغيظ

وأذهب لأعد فنجال من القهوة وأغرق في عالمي الآخر .

في اليوم التالي وجدت رسالة من ريم تسأل فيها عن
أخباري.

فرحت بالرسالة لأنها أكدت لي أنها لا تراني مجرد امرأة
فضولية بلهاء بدليل أنها هي التي أرسلت تسأل عني ، ومن
ناحية أخرى مازالت هناك فرصة للإمساك بالنعلة التي تطن
في رأسي كما اسمتها هي .

_ أهلا بكِ ريم ، أنا بخير الحمد لله ، وأنتِ ؟

هكذا كتبت الرد ولم تكن هي موجودة ، فخطر في بالي أن
أبحث في منشوراتها القديمة عن صديقة باسم مريم ، فربما
أجدها وأتوصل لشيء ، فمن ضمن السيناريوهات التي دارت
في رأسي هو أن تكون مريم صديقة تعرفت عليها ريم عن
طريق النت ثم تعرضت لحادث ما وماتت ، أو أصيبت

بمرض قاتل ، ولكن ما كان يحيرني هو لماذا تعتذر ريم لها
على موتها !! هنا يجنح خيالي لأفلام حركة هندية لا داعي
لأحكيها لكم حتى لا أؤكد الفكرة التي أخذتموها عني الآن ،
نعم أعلم أنكم ترونني كبلهاء فضولية تعيش في فوضى ولا
تستطيع السيطرة على أولادها ، وعلى الرغم من أنه يوجد
جزء كبير من الحقيقة في هذا ، إلا أنه يضايقني أن تكونوا
توصلتم إليها ، وأتمنى أن اقفز بالأحداث لأبين لكم أن هناك
جزء من شخصيتي مازال خافيا عليكم ، ولكن احتراما
لعقولكم فسوف أسير معكم في الأحداث إلى النهاية كما هي .
بحثت في المنشورات القديمة ولم أجد شيئاً ، لا مريم ولا
منشور يتحدث عن مريم ، تلك النحلة الطنانة التي احتلت
تفكيري .

فأغلقت الإنترنت وقمت لأعد طعام الغداء ، زوجي طلب
مني أن أعد له طاجن بامية باللحم ومحشي ورق عنب ،
ولأنه نادرا ما يطلب وليس له طلبات كثيرة فلم أعترض
ووافقت بكل حب .

هل نسيت أن أخبركم أنني أحبه ؟

نعم أحبه . عندما أسمع عن المشاجرات الزوجية والخلافات
الأسرية التي تصل إلى حد الطلاق أو أقسام الشرطة و
المحاكم ، أحمد الله على ابتسامه الموناليزا .

لا تظنوا أنني أسخر منه ، لا أبدا . أنا فقط أسخر من
ابتسامته الدائمة ، أسوأ شيء أن تكون في حالة غضب ويقف
أمامك الشخص الوحيد الذي تريد أن يشعر بما تشعر به
فتجده يبتسم . هو طبعاً يظن أن بابتسامته يخفف عني ،
ولكنه لا يدري أنه يزيد من غضبي ، لو عقد ما بين حاجبيه

وتصنع الغضب وذهب إلى غرفة الأولاد ونهرهم وأمرهم ألا
يضايقونني مرة أخرى وإلا عاقبهم عقابا شديدا ، وبالطبع
سيكررون افعالهم فيعاقبهم هذا العقاب الشديد .

لكنك حينها وقفت بينه وبينهم وأخبرته بأنهم مجرد أطفال
ويوما ما سيفهمون ويهدئون وأنهم رائعون وأنني سمعت
الطبيب في التلفاز يقول أن شقاوة الأطفال وحركتهم
المستمرة دليل على الذكاء .

أتخيل نظراتكم الساخرة الآن وأنتم تقرئون هذا الكلام ،
وتقولون "ها هي البلهاء تعود لتلك التصرفات الغير منطقية"
ولكن مهلا ، أنتم الغير منطقيين ، نسيتم أنني أم تعشق
أطفالها ، وكأي أم تغضب وتثور ولكنها لا تتوقف أبدا عن
حبهم وترى أنه من حقها وحدها أن تعاقبهم ولا تسمح
للآخرين بأن يفعلوا ، حتى ولو كان أبوهم .

هم جزء مني ، أنا فقط من يعاقبني ولا يسمح لأحد بعقابي .
ثم أنني أريد فقط أن يشعر بضيقتي وغضبي وأن يساعدني
بمشاركة حقيقية ، ليس عقاب الأولاد والقسوة عليهم من
بينها.

هل فہتم ؟

لا ؟!

حسناً ، ولا أنا .

لنعود إلى طاجن البامية وورق العنب واللحمة المحمرة
وأتمنى ألا يكون بينكم الآن نباتيون ، فأنا أعلم تقززهم من
ذكر اللحوم ، كانت لي صديقة نباتية في الجامعة وكانت
تُظهر اشمزازها دائماً عندما تراني ألتهم ساندويتشا من
السجق أو الهامبرجر ونحن في طريقنا إلى خارج الكلية
وذاهبون لنستقل الباص للعودة لمنازلنا ، في أحد المرات

لمحتها و هي تنظر لي نظرتها المعتادة وكأنني وحش مخيف
يلتهم فريسته

سخرت من نظرتها وقلت لها :

_ وحش مخيف أفضل من كتكوت ضعيف .

البنات انطلقن في الضحك وأنا معهن

ولكنها قالت :

_ كتكوت ضعيف خفيف أفضل من وحش مخيف قريف

نظرنا إليها باستفهام عن معنى " قريف " !!

فأردفت قائلة وهي تهز رأسها بلا مبالاة :

_ معناها مقرفة ولكن أعدت تركيبها لتناسب القافية .

ضحك البنات ولكنني لم أضحك ودخلت معها في مشاجرة
كلامية انتهت بتركنا وحدنا بعد أن رحل صديقاتنا ياساً من
تهدئتنا ووصول الباص ، فالندالة هي شعارنا .

وقفت أنا وهي بعد هذا الشجار الكلامي الذي طال

والذي قمت باتهامها فيه بأنها نباتية بخلا وليس زهدا ،

وذكرت هي فيه أنني سأسمن وأصبح مثل البطة وشبه الهوت

دوج .

ثم ختمنا بالعبارات الشهيرة بين الفتيات :

_ وأنت مالك ؟ حطّاني في دماغك ليه ؟ اكيد غيرانه مني

.....

عفوا لأنني ذكرت هذا بالعامية ، فلا أرى الفصحى ستجدي

هنا .

المهم هو أننا عندما نظرنا حولنا واكتشفنا رحيل صديقاتنا
والباص وأنا وحدنا انفجرنا في الضحك . واضطررنا إلى
السير ساعة ونصف كاملة لأن انتظار الباص الذي بعده
يستغرق مثل هذا الوقت تقريبا ، لهذا آثرنا السير . وفي
الحقيقة هذا كان قرارا حكيما ورائعا ، فلقد كانت ساعة
ونصف ممتعة . قضيناها في الحديث وتقاربنا كثيرا بعد أن
كنا مجرد زميلات دراسة ورفقاء باص . وعرفت عنها
الكثير الذي لم أكن أعرفه ، وأهم شيء أنها اقنعتني بالتوقف
عن شراء تلك الساندويتشات الملغمة بالدهون واقنعتني بأن
لبدنك عليك حق ، ولكنها لم تقنعني بالتوقف التام عن اللحوم
فهي عشقي ، ولا أحد يتنازل عن عشقه بهذه البساطة ، ثم أن
الله أحلها ، ولن أسمح لأحد بتحريمها علي .

نعود لطاجن البامية باللحم ومحشي ورق العنب .

انتهيت من إعداد الغداء وناديت الأولاد ، كنا في نهاية فترة الصيف ، لم تبدأ الدراسة بعد لهذا يقضون معظم أوقاتهم في اللعب ، ولكن اتفقنا أن يقوموا بتحضير المائدة ورفع الأطباق بعد تناول الغداء ، هذا هو الاتفاق الوحيد الذي استطعت التوصل إليه معهم بعد مباحثات دولية استغرقت يومين ، واعتبرت هذا انجازا يستحق الاعجاب ، لهذا كنت أشعر بالفخر وأنا أناديهم وأمرهم بتحضير المائدة للغداء .

جلسة الغداء تُشبه إجتماعات القمة العربية ، تبدأ هادئة ويُلقى كل واحد منهم بكلمة رنانة ولكن لا اتفاق ولا جدية في أي شيء ، مسرحية هزلية تدور وأنا علي أن أصفق في النهاية.

أحمد : ماما . أريد غرفة وحدي ، إخوتي يفتحون أدراجي
ويعبثون بأشياءني .

مروان : لم أفتح أدراجك !

باسل : ولا أنا !

قلت مازحة : ولا أنا

ثم رفعت أحد حاجبي وتكلمت كرئيس عصابة الأربعين

حرامي : إذا يوجد غريب بيننا ، ابحثوا عنه لأمزقه إربا

نظر لي أحمد وكأنه ينظر لإمرأة مجنونة وبنفاد صبر قال :

_ ماما أنا لا امزح ، كبرت الآن والمفروض أن لي

خصوصية .

_ أن يصبح عمرك سبعة أعوام ليس معناه أنك كبرت

_ حقاً؟! وماذا عن كلامك أول أمس بأننا كبرنا !

_ كنت أظنكم كبرتم وكنتم أريد منكم طلباً

مروان : بل استشارة

باسل : لا هو طلب واستشارة ، الاثنان بمعنى واحد

أنا : توقفوا لن نعود لهذه المهاترات

مروان : ما معنى مهاترات ؟

باسل : معناها أن الطلب والاستشارة بمعنى واحد

مروان : لا ليس هذا معناها ، فالطلب غير الاستشارة

باسل : اسكت أنت ، فأنت صغير لا تفهم شيئاً

مروان : لست صغيراً وافهم كل شيء ، أنا أذكى منك

باسل : بل أنا الأذكى ، أنت ما زلت في السنة الثانية من

الحضانة وأنا في أولى مدرسة

أحمد : أنا أكبر منكما أنتما الاثنين ، وإن رأيت واحدا منكما
يفتح أدراجي سأضربه .

باسل : لا تستطيع ضربي أنا اقوى منك

أحمد : تعترف إذا بأنك من عبث بأشيائي

باسل : لا لم أعترف

أحمد : بل قلت هذا الآن

باسل : لا لم أقل هذا

أحمد : ماما ألم يقل الآن لا تستطيع ضربي وهذا معناه أنه

هو الذي فتح أدراجي ؟!

وماما التي هي أنا كل تركيزها في طاجن البامية ومحشي

ورق العنب وهل سيعجب زوجي طعمه ؟ " اشعر بأن ملحه

زائد قليلا ولكن ربما لن يلاحظ إذا كان جائعا جدا " .

وانتبهت من أفكاري على ضربه قوية على المائدة اهتزت لها
الأطباق رعبا .

فنظرت بغضب إلى مصدر الصوت وكان مصدره أحمد

_ هل جننت؟! كيف تضرب المائدة هكذا!

_ أنت لا تعيريني أي اهتمام عندما أتحدث إليك . هل توجد

أم تتجاهل ابنها بهذا الشكل؟

رفعت حاجبي بدهشة فلم أتوقع أن يقول هذا .

_ وما الذي كنت تقوله يا خطيب الأمة؟

مروان : ما معنى خطيب الأمة؟

أحمد : اخرس يا مروان

مروان : بل اخرس أنت

باسل : كل شيء تسأل عنه ، رأييت ؟ أنت لا تعرف شيئا

مروان : أنا أعرف كل شيء ، أنت الغبي

باسل : بل أنت الغبي

وفجأة اشتعلت الحرب العالمية الثالثة على مائدتنا العامرة ،

وانسكبت البامية على ورق العنب وزحف المرق على

الجميع في مشهد شكسبيري مفعج انتهى بصراخي فتفرقت

الجموع المتصارعة وهرعوا إلى غرفتهم في خوف وهم

يشاهدون أهم تتحول إلى تنين مجنح .

فصرخت كالرعد :

_ اذهبوا للاغتسال أولاً .

فعادوا ادراجهم بخوف يلونون بالحمام .

بعد خروجهم منه هرعت لأخذ دشا لأنظف نفسي وأهدأ

أعصابي ، احسست أن رأسي يفور ويغلي وكان يجب أن

اهداً ، تركت كل شيء كما هو ، فالغضب كان يعصف بي
عصفاً .

ظللت دقائق تحت المياه الساخنة نفضت خلالها كل الأفكار
التي كانت تطبق على رأسي ، هذا التدريب الذهني لتهدئة
أعصابي توصلت اليه بعد أن وقفت أكثر من مرة على حافة
الانهيار ، نجحت أخيراً في أن أمتلك القدرة على الوصول
لمرحلة الفصل ونزع كل ما يضايقني وأن أرمي بكل همومي
في لحظات استرخاءيه تعيد لي هدوئي .

خرجت من الحمام هادئة ولكن كنت حزينة لوضعنا
الميلودرامي في هذا البيت ، وتلك الطريقة العبثية التي نعيش
بها . ارتديت ملابسني ، وذهبت إلى المائدة لأنظفها وانظف
الأرض وأنا أكاد أبكي على طاجن البامية باللحم وورق

العنب اللذيذ ، وتخيلت صديقتي النباتية وهي تضحك ،
فأمسكت بقطعة لحم وقضمتها غيظاً .

بعد التنظيف ذهبت إلى غرفة الأولاد وأنا عازمة على
عقابهم ولكن بشكل هادئ ، فالصراخ لا يأتي بنتيجة ، ولا
أحب أن اضربهم فقلبي أضعف من أن يفعل هذا بهم .
لكن يبدو أن التنين المجنح الذي تحولت إليه في لحظة سكب
الطعام أخافهم حقاً . فلقد وجدتهم قد بدلوا ملابسهم و يجلسون
في هدوء كلاً على سريره . أحمد يمسك بقصة يقرأها ،
وباسل يرسم ، ومروان يحاول تركيب لعبته بعد أن قام
بعملية تشريح مميته لها .

هذا المشهد جعلني أهدأ بشكل كامل وكدت أن أتراجع عن
فكرة عقابهم ولكن ركلت الفكرة بعد أن هجم على رأسي

مشهد طاجن البامية وهو مسكوب والمرقة وهي تغرق
ملايسي .

_ ما فعلتموه لن اجعله يمر هكذا دون عقاب ، تجاوزتم كل
الحدود ، أحاول أن أعاملكم ككبار ولكن أنتم بتصرفاتكم
الغبية تصرون على أن أعاملكم كأطفال ، بل كحيوانات لا
تفهم .

مروان : لم أفعل شيئاً أحمد هو الذي سكب الطعام

أحمد : كلنا تشاجرنا وأنت الذي سكب المرق

باسل : بل أنت من سكب المرق يا أحمد ومروان هو الذي

سكب البامية .

قلت بغیظ وأنا أكاد أنفجر : وأنت يا بطل ماذا سكبت ؟ ورق

العنب !!

قال وهو يحني كتفيه ويغوص في كراسته التي يرسم فيها :

_ لم أسكب شيئاً ، كنت أمسك مروان بيدي لأضع رأسه في

المرق المسكوب، ليس لدي يد ثالثة لأسكب بها المحشي .

ضحكت .. لا أعرف لما ضحكت ، تلك الضحكة الغبية

أفلتت مني فأضاعت خوفهم وضاعت معها قدرتي على

عقابهم . فشل آخر يضاف لقائمتي المؤسفة .

تنهدت وجلست في حزن على حافة فراش أحمد ، فعانقني

من الخلف وقبلني وقال : أنا آسف ماما

ومروان لاذ بحضني وهو ينظر لي بحنان ويقول : أنا أيضا

آسف ماما

ورفع باسل رأسه عن كراسته وقال : وأنا آسف

أشرت له ليقترب وعانقتهم ثلاثتهم وقبلتهم واحدا واحدا ..

ألم أقل لكم أنهم أطفال رائعون ..

الفصل الثاني

مرت الأيام وصداقتي بريم تزداد يوماً بعد يوم ، كانت فتاة مثقفة وقارئة ممتازة ، تناقشنا في مواضيع كثيرة ، ذكرتني بتلك الفتاة المرححة عاشقة القراءة التي كنت عليها طوال حياتي وقبل زواجي ، عشقي للقراءة بدأ منذ طفولتي ولكنه توقف منذ أن انجبت أول طفل لي ودخلت تلك الدوامة الأمومية المرهقة .

كانت ريم أيضاً ناقدة تاريخية لا يستهان بها ، كانت تحكي التاريخ من زاويتها هي ، ولها رأي خاص في بعض الشخصيات التاريخية مختلف عما قرأناه في معظم الكتب أو حتى درسناه في المدرسة ، كانت صاحبة رؤى خاصة وذكاء فطري مميز .

لا أخفي عليكم انجذبت لها بطريقة شديدة ، أصبحت أفضل أوقاتي طوال اليوم هي التي أقضيها في الحديث معها ، كنا نتحدث بالكتابة فترة طويلة ولا نتوقف حتى نشعر بالإرهاق وتصاب أصابعنا بالتشنج فننتوقف مرغمين .

كانت بالنسبة لي رواية أقرأها بلذة واستمتع بكل كلمة فيها ، لا أعرف كيف كانت تراني ولكن تعلقها بي كان واضحا . أصبحنا صديقات مقربات ، ولكن ظلت حلقة مفقودة بيننا ، كانت حياتها الخاصة وتاريخها هي ، لم تتحدث مرة واحدة عن نفسها وظروفها وحياتها . وكلما حاولت أن أسألها كانت إجابتها دائما : " دعينا مني ، أنا لا أحد ، لا أملك تاريخا

لأحكيه ولا قصة حياة لأرويها ، أنا ريم فقط "

وظلت ريم فقط هي روايتي الغامضة وكلما توغلت في

أحداثها قليلا ، زاد شغفي بمعرفتها أكثر .

حكيت لها عن نفسي وحياتي وأولادي وزوجي . كانت
تضحك مما أروييه ، وكانت تسعدني ضحكاتها ، وشعرت من
خلال ضحكاتها أن حياتي ليست بالسوء الذي كنت أتخيله ،
بل بها جانب كوميدي لو انتبهت إليه لضحكت مثلها ولمرت
الحياة بصورة سلسة أكثر .

ولكنها لم تكتفي بالضحك ، اعطتني بعض النصائح في كيفية
التصرف في بعض المواقف الفوضوية التي أعيشها ، وحباً
فيها التزمت بنصائحها ، عندما نحب أحد نستمع إليه بكل ما
فيينا ، ونشعر بحماس شديد لتنفيذ طلباته وارشاداته ونصائحه
وهذا ما كان . كانت أول نصيحة خاصة بتنظيم الوقت

يجب أن أحدد لكل شيء وقتاً ، لا أترك اليوم يسير هكذا
بعشوائية .

أحدد ميعاد للاستيقاظ وميعاد للنوم ، وميعاد للصلاة وميعاد
لتناول الطعام وميعاد للعب وميعاد لعمل شيئاً مفيداً مشتركاً
بيننا كلنا ، مثل أن نصنع مجسماً كبيراً بالمكعبات ، أو نرسم
لوحة كبيرة كل واحد فينا يرسم جزء فيها ، أو نشاهد التلفاز
معاً ، أو نخرج في نزهة ، أو حتى يشاركونني في صنع
بعض الحلويات البسيطة ، أو تكوين أشكال بالصلصال
أي شيء نفعله معاً سيزيد قربنا من بعض ويعلمهم روح
المشاركة والتعامل كفريق واحد له أهداف واحدة .
بدأت التنفيذ . طبعاً فشلت أكثر من مرة كعادتي ، ولكن كان
يوجد شيئاً مختلفاً هذه المرة وهي تصميمي أنا على التنفيذ
والتحفيز المتواصل الذي أجده من ريم .

لم أبالى بفشلي ، وكلما فشلت صممت أكثر على النجاح
وشعرت بقربي منه ، حتى استطعت ضبط مواعيد النوم

والاستيقاظ والصلاة ، هذا النجاح الجزئي حفزني أكثر على
المواصلة .

كانت الساعة التي نقضيها في عمل مشترك كارثية بمعنى
الكلمة ، كانت تمتليء بالمشاجرات وتنتهي بالتطاول بالأيدي
ثم عقابي لهم بالحرمان من التلفاز أو الحلويات

ولكن مرة في مرة بدأت الأمور بينهم تهدأ ، وبدأ حماس
المشاركة يدب في أوصالهم ، وسعادتهم بما يفعلون تزيد
وكل تغير ألاحظه عليهم يزيدني سعادة وثقة بنفسي وحباً
لأولادي واحتراماً وتعلقاً بريم ، صاحبة الفضل في هذا كله .

زوجي بدوره بدأ يشعر بهذا التغيير ، يراني اهدأ وأكثر
تودداً وراحة ورومانسية ، فبدأ هو أيضاً يزيد من اهتمامه

ولاحظت أنه أصبح يعود إلى البيت قبل مواعيد المعتاد

بساعة تقريبا . وعندما سألته ! قال أنه كان يقضي هذه

الساعة مع أصدقائه ولكنه يفضل الآن أن يقضيها معنا .

لا أخفي عليكم غضبت في البداية عندما علمت بهذا ، ولكنه

صالحني بطريقته الحانية و عذرتة ، فالبيت فعلا كان لا يطاق

وأنا لا أكف عن الشكوى .

لن أطيل أكثر من هذا ، أعلم أنكم الآن في شوق لمعرفة سر

مريم ، وشعرتم بالملل من تفاصيل حياتي التي ليس بها أي

أسرار . فكلنا نعشق الأسرار .

ريم كانت متحفظة جدا في هذا الموضوع بالذات ، ولكن في

فترات معينة كنت أشعر بأنها تريد أن تحكي ولكن تتراجع

في آخر لحظة ، لهذا قررت أن اقتنص لحظة ضعف من تلك

اللحظات التي تمر بها أحيانا واضغط عليها لتحكي .

لم يعد الفضول وحده هو الذي يجذبني لمعرفة سرها ، بل
الحب أصبح دافعي الأول .

أحببت تلك الفتاة وأريد أن أعرف كل شيء عنها ، من مريم
وكيف ماتت ولماذا تعتذر ريم لها على موتها ! ولماذا كل
هذا الغموض الذي يحيط بحياة ريم ؟!!!

هذا ما أريد أن أعرفه . وأظن أنكم تريدون الآن أن تعرفوه .
لن أبخل عليكم بهذا ، تحملموني وأنا أحكي عن نفسي وعن
أولادي وزوجي لتصلوا معي إلى مريم النحلة الطنانة في
رأسي وريم صديقتي الساكنة بقلبي .

سافر زوجي في رحلة عمل ، هو يعمل مهندس الكترونيات ،
ارسلته الشركة التي يعمل بها ليحضر مؤتمرا دوليا في
ألمانيا خاص بمجال عمله . في تلك الليلة بعد أن نام الاولاد
جلست وحدي في غرفتي .

أمسكت الهاتف في يدي وأرسلت لريم تلك الرسالة :

_ نامت الألغام وهدأت المعركة وعلى القائدة ريم

الاصطفاف فوراً أمام القائدة ندى في الدردشة .

وجاءتني رسالتها :

_ تمام يا فندم

القائدة ريم حضرت واصطفت .

أكتب لها مازحة :

_ لا يصطف وحدهم سوى المجانين أصحاب الهلاوس الذين

يتخيلون أن بجوارهم أحد .

_ ولا يطلب أحد من أحد الاصطفاف في الدردشة إلا وكان

معتوها فضلاً عن أن يطلق على نفسه لقب قائد .

ضحكت وكتبت لها :

_ أنتِ مجنونة وأنا معتوهة وهذا الفضاء الأزرق هو مصحة

مجانين ، فما رأيك بأن نقوم بجلسة تحليل نفسي الآن ؟

_ تحليل لمن ؟

_ لنا ، أنا وأنتِ

_ نحتاج لطبيب نفسي ليفعل هذا .

_ سأكون طبيبتك وستكونين طبيبتي ، أي أننا سنتبادل

الأدوار

_ أخبريني أولاً أين زوجك ؟

_ سافر إلى ألمانيا ليحضر مؤتمرا هناك

_ ومتى سيعود ؟

_ بعد أسبوع تقريباً وربما أقل

_ حسناً من سيبدأ ؟

أنتِ _

لا أعرف كيف أبدأ أو ماذا أقول ، أريني أنتِ أولاً .

حسناً سأبدأ ، تمددي على الأريكة وارجعي بذاكرتك

للوراء .

أي أريكة ؟

تخلي عزيزتي تخيلي

حاضر ، تمددت الآن وعدت بذاكرتي للوراء

هل أنتِ جاهزة للسؤال الأول ؟

نعم

من مريم ؟

.....

_ هذا السؤال إجباري لن أتمكن من علاجك دون أن أعرف

إجابته

_ إصرارك عجيب ، لماذا لا تتوقفين عن هذا السؤال ؟

_ أشعر أن إجابة هذا السؤال هي بوابة العبور إليك وطوق

نجاتك .

_ كيف يكون طوق نجاة لي ؟

_ لأنك تتألمين ، وسبب ألمك هي مريم أو ما حدث لها ،

ربما إن بحث لي خفت بعض العباء عن كاهلك . ثقي بي

_ أثق بك ، أنت صديقتي الوحيدة تقريبا ، منذ أن دخلت بئر

عزلتي وأنا أعيش بعيدا عن الجميع .

_ يسعدني أنك فتحت لي وحي بابك

_ ولكن أخشى أن أبوح لك فتندمي أو أندم أنا

__ الحقيقة داخلڪ ، إخراجها للنور لن يؤذيك بقدر ما فعلت
وهي حبيسة بداخلڪ .

__ أنتِ لا تعرفين شيئاً ، هذه الحقيقة إن خرجت ستدمر ما
تبقى مني.

__ هل هي مخيفة إلى هذه الدرجة ؟

__ نعم

__ مخيفة لمن ؟ لا أظنك قد فعلت شيئاً تخافين منه .

__ بل فعلت

__ ماذا فعلت ؟

__ قتلت مريم

__

__ لم أقو على كتابة حرف واحد بعد تلك الجملة الصادمة .

ريم قتلت مريم !!! هذا مستحيل !

تمالكت أعصابي بعد دقيقتين واسترجعت قدرتي على الكتابة

وسألتها :

_ كيف قتلتها ؟ ولماذا ؟

_ كان لابد أن تموت ، لا حياة لها بعد كل ما حدث

_ وما الذي حدث ؟

_ سأروي لك كل شيء ، سئمت الصمت وأثق بك وأعلم

أنني لن أجد من هو أقرب منك لأحكي له .

وبدأت تروي :

مريم كانت فتاة رائعة ، تمتلأ بالحياة ، منذ طفولتها

وعلامات الذكاء والنبوغ تظهر عليها ، كانت تريد أن تحتوي

العالم بين يديها ، كانت الحياة بالنسبة لها رحلة إلى القمر

بكل ما فيها من شغف وعلم ورومانسية وموسيقى ، كانت

تقرأ كتاب لهيجل وهي تسمع موسيقى لموزارت ، تنظف

حجرتها وهي تشاهد فيلم الهروب الكبير ، تجلس وراء

زجاج نافذتها لترقب قطرات المطر وهي تتسابق في

الوصول إلى الأرض أو ترقص كالفراشات على نافذتها .

كانت أحلامها كبيرة تتجاوز الممكن والمستحيل معا ، تفوقها

الدراسي ملحوظ وطيبة قلبها مشهودة ورجاحة عقلها مثار

احترام الجميع .

كانت تعيش مع أمها وأبيها وأخويها ، ابنة وحيدة وشقيقتين

أكبر منها ، لم تكن لها أختاً تكلمها وتحكي معها وتقضي

معها الليل في الحديث والسمر وتشاركها كل شيء ، لهذا

استبدلت الأخت بالقراءة والموسيقى ، خاصة أن أمها لم تكن

تلك الأم الصديقة القريبة ، كانت تحب شقيقتها أكثر ، تهتم

بهم في كل شيء ، والأب كان بعيد عن الجميع ، لا يهتم إلا
بنفسه ، يعشق ذاته وماله وشركاته وما بعدهما لا قيمة له .
وكان شجاره مع شقيقها لا ينتهي ، متمردون هم ، وهو
قاسي ، والأم تأخذ جانب ولديها دائما ، وهكذا كانت مركب
تلك الأسرة تغرق ببطء ، حتى وصل الماء إلى رقاب الجميع
لم تكن أجواء البيت تسمح بحياة أسرية دافئة ، فاستدفنت
بدراستها وكتبها وموسيقاها . حتى الصديقات لم يكن لها
فيهن نصيب ، فممنوع عليها الخروج وحدها أو التحدث في
الهاتف بصوت منخفض ، الجميع يمارس سيادته عليها ،
جارية واحدة وأربع أسياد ولا مفر !!

__ وأنتِ ما علاقتك بها ؟ هل كانت صديقتك ؟

__ قلت لكِ لم يكن لها أصدقاء ، لا تتعجلي الأمور ستعرفين

كل شيء بعد قليل .

_ هل ممكن أن نتكلم هاتفيا بدلا من الكتابة ؟ أريد أن أسمع صوتك وأنت تروي .

_ لقد طلبت هذا الطلب من قبل وأخبرتكم أنه ليس باستطاعتي أن أفعل .

_ نعم ولكن ظننت أنك رفضت من قبل لأنك لم تثقي بي بعد . أو لرغبتك في ألا تتعمق صداقتنا إلى درجة أكبر من صداقة إنترنت ، أما الآن فلا أري أي من هذه الأسباب أصبحت منطقية .

_ لا زال السبب الذي رفضت من أجله قائم حتى الآن ، وليس ما ذكرت من أسباب .

شعرت بالحيرة وكتبت :

_ ليس السبب منهم ؟!

_ نعم ، وأرجو أن تنتظري إلى النهاية وسأخبرك ما هو
السبب .

_ حسناً ، واعتذر عن طلبي .

_ لا تغضبي مني ، صدقيني أريد مثلك أن أسمع صوتك وأن
أراك أيضاً ، ولكن ليس هذا في استطاعتي الآن و أعدك
بأنني سأخبرك بالسبب لاحقاً .

_ حسناً عزيزتي ، لا عليك من هذا الآن ، أكمل الحكاية
_ حاضر سأكمل .

وعادت لتروي ..

_ وصلت مريم إلى المرحلة الجامعية ، التحقت بكلية الطب
كانت تريد أن تكون طبيبة لتساهم في جعل حياة الناس أفضل
وأقل ألماً. كعادتها كانت متفوقة ومتميزة ، لكن الهوة بينها
وبين أفراد أسرتها كانت تتسع ، أصبحت تشعر بغربتها

وسطهم ، تجلس معهم فلا تشاركهم حديثهم إلا بكلمات
مقتضبة ، لا تعرف عن شقيقها الكثير ، عن حياتها
الخاصة تحديدا ، أحدهما تخرج من كلية التربية والآخر
حصل على شهادة متوسطة ورفض أن يكمل دراسته ، تسبب
هذا وقتها في شجار عنيف بينه وبين والده ، انتهى بأن
صفعه على وجهه وحرمه من راتبه الشهري الذي كان
يعطيه له ، طبعا أمه لم تلتزم بهذا الحرمان وكانت تعطيه
المال من وراء أبيه . كانت تكره زوجها ، هذا كان واضحا
للجميع وكان هو أيضا يتجاهلها كثيرا أو يسخر منها ومن
تربيتها لأولادها ، وعلمت في أحد الأيام أنه يخونها ، كانت
تلك الليلة بداية لطريق مظلم سار فيه الجميع .

__ كيف اكتشفت خيانتة ؟

_ عن طريق هاتفه ، رسالة وجدتها عليه ، ثم طلبت من

ابنها الأصغر أن يراقبه فأتى لها بالمعلومات كاملة .

يستأجر شقة فخمة يتقابل فيها مع عشيقته ، امرأة ساقطة

تستنزف منه المال بشراهة ، فلم يكن بالرجل الذي يُعشق إلا

لماله فقط .

_ وماذا فعلت عندما تأكدت من خيانتة ؟ ماذا حدث في تلك

الليلة ؟

_ كانت مواجهة صعبة وقاسية ، لم يخجل هو أو ينكر ،

واجهها بكلمات بشعة ، حطم أنوثتها تماما أمام اولادها ، قال

أنها لم تعد جميلة ، كبر سنها وتجدت ملامحها وترهل

جسدها ، ألقى بقذائفه نحوها دون رحمة ، كانت تهتز بقوة ،

تتساقط من داخلها ببطء ، تشتعل النار في جوفها دون انطفاء

لا يوجد على المرأة أقسى من أن يخبرها زوجها بأنها لم تعد

أنثى ، وأنها لم تعد تغريه أو تكفيه ، فهذا معناه أنها لم تعد
على قيد الحياة وأنها أصبحت شبحاً لا يراه أحد . وبالفعل
منذ هذا اليوم أصبحت كالشبح ، كبرت ملامحها عشرات
السنين وتناقلت خطواتها وكأنها تحمل على كاهلها مائة عام
من الحزن . تم هدمها في تلك الليلة دون رحمة ولم يتبقى
فيها شيء يصلح للبناء مرة أخرى . مع أنها لم تكن مثلما قال
، بل كانت جميلة وأنيقة وتهتم بنفسها وتبدو أصغر من
عمرها ، ولكنها صدقته وهذا قتلها .

_ رجل بشع

_ نعم كان بشعاً

_ لماذا تقولين كان ! هل مات ؟

_ عزيزتي أنت تستعجلين الأحداث وتقاطعينني كثيرا .

قلت بخجل :

_ اعتذر لكِ ولكن تأثرت بما قلتيه وشعرت بالشفقة على تلك

المرأة ، لن اقاطعك ثانية ولكن اخبريني كيف تقبل اولادها

هذه الاتهامات المتبادلة بينهما وماذا كان رد فعلهم .

_ بالطبع كانوا في صف أمهم . ، حقدوا على أبيهم أكثر ،

كراهيتهم له تضاعفت ، أصبح هو العدو المحتل وهم الشعب

المقهور الذي يتمنى يوم الخلاص .

أصبحوا يتمنون موته كل يوم ، كبرت تلك الأمنية حتى

أضحت رغبة قوية احتلت تفكيرهم ، خصوصا أنه أصبح

يقتر عليهم المال ويعاملهم كلهم معاملة سيئة

_ حتى مريم ؟

_ حتى مريم ، ولكن ربما مريم كانت أقلهم كراهية له ، ما

كان في قلبها من حب للجميع لم يترك للكراهية مساحة

واسعة داخله ، لم تحب أباهما ولكن لم تتمنى موته مثلهم ،

فقط تمنيت أن يبتعد عنهم وأن يعيش في مكان آخر ، لأن
وجوده كان يسمم حياتهم بشكل لم تعد تحتمله ، لهذا كانت
تتجنب الجلوس معه أو حتى مقابلته صدفة في رواق المنزل
. وهو بدوره كان لا يترك فرصة لإهانتهم أو السخرية منهم
وإشعارهم بأنه هو صاحب المال ومن ينفق عليهم وبالتالي
على الجميع طاعته ، فهو السيد وهم بدونه لا شيء .

__ هذا مؤلم

__ نعم مؤلم ، كما أنك لم تتوقفي عن مقاطعتي ، وأنا تعبت
من الكتابة ، لنكمل غدا .

__ لا لا انتظري ، أنا آسفة لكن احببت فقط أن أكتب كلمة أو

كلمتين لتفهمي أنني أتابع ما تكتبينه وأحمسك على

الإسترسال أكثر .

_ لم أغضب عزيزتي ، ولكن فعلا أشعر بالإرهاق ، نكمل
غدا أفضل .

_ أعلم أنني أرهقتك ، ولكن لن يغمض لي جفن قبل أن
أعرف بقية الحكاية .

_ تبا لكِ ، أنتِ كالأطفال وأنا لست " أبله فضيلة "

ضحكت عندما قالت هذا وكتبت لها :

_ نعم أنا كالأطفال ، ولن أنام قبل أن أسمع باقي الحكاية ،

كما أنكِ لستِ أبله فضيلة لأن حكاياتها كانت تذاع في

العاشرة صباحا ، ونحن الآن في الحادية عشرة والنصف

مساء وقاربنا على منتصف الليل ، ممكن أن أعتبرك برنامج

إعترافات ليلية ، هذا مناسب أكثر .

_ نعم هي إعترافات وأخشى أن أندم بعد أن أنتهي منها

_ ثقي بي ، ما تخبريني به لن يعلم به أحد

_ قلت لك أنني أثق بك ، ولكن باقي القصة رهيب ، لا
أعرف هل ستتحملينه معي أم لا ، ولا أعرف رد فعلك بعدها
_ قلت أنك قتلت مريم ، لا أظن بأن هناك ما سيصدمني أكثر
_ بل يوجد .

شعرت بالخوف حين قالت هذا ...

الليل والسكون ووجودي وحدي في الغرفة ، وتلك الصديقة
المحملة بالأسرار على الجانب الآخر حيث لا أعرف أين
تحديدا ، كل هذا جعلني أشعر بالرهبة ، كلمة قتل مخيفة
كفاية ، ما الذي يمكن أن تكون ريم فعلته أكبر من هذا !
وكيف أنا تقبلت اعترافها بأنها قتلت مريم بهذه البساطة !! أم
أنني لم استوعب بعد ما تقوله وأتعامل معه على أنه حكاية
أسمعها فقط وليست واقع يمكن تقييمه أو التفكير فيه !

دار كل هذا بعقلي ومرت فترة صمت ثقيلة بيننا ، ويبدو أنها
شعرت بأفكاري فانتظرت حتى أنتهي منها وأحسم أمري .
ولقد حسمته بالفعل .

_ أكملني ريم ، أريد أن أعرف ، لا تخشي شيئاً

_ ندى أنا أحكي لكِ لأنني كما قلتِ من قبل أحتاج من

يشاركني هذا العبء ، أنا أموت ببطء ، ما بداخلي يتآكلني

أصبح داخلي كالبنر الخرب ، لا ماء ولا زوار .

_ لا أعرف ماذا أقول لكِ ، أشعر بحزنك ، يصل إلى قلبي

فيؤلمه ، ليتني استطيع التخفيف عنك ، ولكنني حتى الآن لا

أفهم علاقتك بتلك الأسرة ، وكيف قتلتِ مريم ولماذا !

_ ربما الأفضل ألا تعلمي ، لا تقومي بفتح باب لا تعلمي ما

وراءه ، أحياناً يكون جهلنا بالأشياء رحمة .

_ ولكنك صديقتي ، ما يؤلمك يؤلمني

_ بدأ فضولك قبل أن نصبح صديقتين .

_ نعم ولكن الأمر الآن لم يعد فضولاً ، بل خوفاً عليكِ

واهتماً بكِ .

_ يسعدني خوفك علي ولكن اطمئني أنا الآن لست في خطر

_ وهل كنتِ في خطر ؟ هل الشرطة تبحث عنكِ ؟

_ لا ليست الشرطة

_ من إذاً؟!!

_ أهلي

_ أهلك؟! هل أنتِ هاربة منهم ؟

_ نعم

_ لما؟!!

_ دعيني أكمل القصة وستعرفين .

_ تفضلي أسمعك

وجاءتني كلماتها وتلك القصة التي كانت كدوامة سحبتي

داخلها بقوة :

_ كان الأمر يزداد سوءا والأيام تمر متناقلة في أرجاء

البيت الفخم الخالي من الحب . كانت مريم تلمح شقيقها

وأما يتهامسون ولا تدري ما الأمر ، ولكنها لم تكن تعباً بهذا

فهي في عالمها الذي صنعه لنفسها وتعيش فيه مع كل ما

تحبه لا حاجة بها إلى تلك القلوب الجافة التي تحيط بها .

وعلى الرغم من أن هذا الجو الخانق الذي يسري في البيت

يؤلمها إلا أنها لم تستسلم أبدا له ولم تجعله يفقدها إحساسها

بالحياة والرغبة فيها . كان بداخلها أمل كبير بأن تنهي

دراساتها في كلية الطب ثم تسافر لإكمال دراساتها العليا بعيدا

عن هذا كله . كانت تعتبر نفسها مجرد ضيفة سترحل قريبا
وعليها أن تصبر حتى يأتي هذا اليوم المرتقب .

ولكن همسهم زاد ، ولقاءاتهم في غرفة الأم والباب مغلق
أصبحت كثيرة وبدا واضحا أن هناك شيء ما يتم نسجه ببطء
. وهذا بدأ يخيفها ويثير فيها الفضول مع راية سوداء أخذت
ترفرف فوقهم تنبأها بأن الموج في أعلى درجة له وعليها أن
تستعد للغرق .

ذات صباح ذهبت إلى جامعتها حضرت جميع محاضراتها ثم
عادت إلى البيت مرهقة ترغب في تناول الغداء والنوم قليلا
قبل أن تستيقظ في المساء للمذاكرة فالامتحانات النهائية قد
اقتربت وأصبح حلمها قاب قوسين أو أدنى .

كان الجو المخيم على البيت غريبا ، لم تجد أمها ولا شقيقها
ولا أبيها ولا حتى الخادمة . بحثت في المطبخ وغرف

الجميع وأطلت من الشرفة على الحديقة الخلفية ولكن لم تجد
أحد . لم يحدث من قبل أن يكون البيت خاليا هكذا ، حتى
حارس الفيلا اختفى .. !

عادت إلى المطبخ بحثا عن طعام لأنها كانت جائعة جدا
ولكن عقلها لم يتوقف عن التفكير في غياب الجميع بهذا
الشكل .

وجدت على الموقد وعاء به مكرونة وآخر به بفتيك بارد
دليل أنه مُعد منذ ساعات . أعدت لنفسها طبق من هذا وذاك
وجلست لتأكلهما في صمت وبطء فالقلق بدأ يساورها .
فكرت في الاتصال بأمرها وقررت أن تفعل هذا بعد أن تنهي
غداؤها فربما يأتي أحد منهم الآن ويتم حل هذا اللغز دون أن
تضطر للاتصال ، فأمها لا تحب أن يتصلوا بها إلا لضرورة

أنهت غدائها وخرجت من المطبخ فلمحت باب المكتب
مواربا ، فسارت نحوه وفتحته فوجدته في حالة فوضى لم
تفهم لها سببا ! ولكنها أثارت في قلبها الخوف وتخيلت شجارا
ما قد حدث هنا . صعدت إلى غرفتها والإرهاق والخوف
يثقلان خطواتها ، غيرت ملابسها وارتدت شيئا مريحا ثم
جلست على الفراش وأمسكت الهاتف وطلبت رقم أمها ..
لم ترد الأم ، حاولت مرة أخرى ولكن لا مجيب .

فطلبت رقم أخيها الأكبر ثم الأصغر ولكن بلا فائدة .

استبد بها القلق ووصل إلى ذروته واضطرت في النهاية إلى

الاتصال بوالدها ولكن لم يختلف الحال أيضا وظل اتصالها

دون رد !

أصبح القلق بركان هائل يغلي داخلها ، خرجت من غرفتها

وهي مازالت تحاول أن تتصل بالجميع واحدا تلو الآخر

دارت في البيت ، خرجت إلى الحديقة وهي مستمرة في محاولة الاتصال حتى سمعت صوت هاتف يرن ، كان صوت هاتف أخيها نظرت حولها بحثا عن مصدر الصوت ولكن الرنين توقف ، فأعدت الاتصال مرة أخرى فعاد الصوت يصدح . و ببعض التركيز استطاعت أن تحدد اتجاهه ، سارت نحوه حتى وجدت نفسها أمام غرفة الخزين القديمة الموجودة في حديقتهم الخلفية ، اندهشت جدا ما الذي يفعله أخيها في غرفة الخزين التي لا يدخلها أحد منهم أبدا !!

مدت يدها وهي تحاول أن تتغلب على خوفها وفتحت الباب ولكنه لم يفتح ، كان مغلقا من الداخل وهذا ما جعلها تشعر بأن شيئا ما يحدث داخل تلك الغرفة !

شعرت بالخوف فعادت إلى البيت وصعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب وجلست على فراشها لتفكر بهدوء ، ولكن من

أين لها الهدوء وكل خلية في جسدها ترتجف والأفكار
السوداء تطل من رأسها وتملاً فضاء داخلها كله .

مرت ساعة وهي على هذه الحالة من التفكير والخوف
والاضطراب حتى سمعت دق على باب غرفتها ، قالت
بصوت مرتجف : من ؟

جاءها صوت أمها : افتحي يا مريم .

نهضت ببطء واتجهت إلى الباب وفتحته وهي تنظر بتوجس
وفي عينيها تساؤل وعلى لسانها يقبع الصمت ، فلم تستطع
أن تتفوه بكلمة .

ابتسمت الأم بسمة هادئة وهي تقول :

__ آسفة لأنني لم أرد على اتصالك كنت أقود وخشيت أن
أتسبب في حادث وأنا اتحدث في الهاتف .

قالت مريم وهي غير مصدقة لما تقوله أمها لأنها لم تسمع صوت سيارتها وهي تدخل حديقة الفيلا قبل صعودها إليها :

_ وأين علاء وخالد ؟

_ لا أعرف ، هل اتصلت بهما ؟

_ نعم ، لأنك لم تجيبي على اتصالي ووجدت البيت خاليا .

حتى الخادمة والحارس لم أجدهما .

_ نعم الخادمة طلبت أجازته اليوم فهي مريضة ، والحارس

تشاجر معه خالد وطرده لأنه نسي البوابة مفتوحة طوال

الليل .

_ ولكنني وجدت الغداء معدا ! هل أعدته ثم انصرفت ؟

_ نعم ، أخبرتها أن تعد شيئا خفيفا لنأكله قبل أن تتصرف

وقد فعلت . هل تناولت غدائك ؟

_ نعم الحمد لله .

_ حسنا سأتركك لتستريح قليلا

ثم ربتت على خدها برفق وخرجت من الغرفة

وقفت مريم حائرة فأمها تبدو مختلفة ، واضح أنها تخفي شيئاً

ما ، يوجد شيء مريب لا تفهمه .. !

ظلت في غرفتها تشعر بعدم الراحة وكأنها تجلس على فوهة

بركان ، حاولت النوم فلم تستطع وظلت صورة باب غرفة

الخزين المغلقة تقفز أمام عينيها وتضرب عقلها بقوة . يجب

أن تعرف ماذا يفعل أخوها فيها ولماذا اختفى الجميع ولما

أمها تبدو بهذا الغموض !

عزمت أمرها على دخول غرفة الخزين فخرجت من غرفتها

بهدوء وهبطت الدرج وخرجت من باب الفيلا وسارت نحو

غرفة الخزين ولكن فوجئت بصوت أمها يناديها ، التفتت

إليها في خوف فلمحت نظرة غريبة في عين أمها زادت من

خوفها ، وسمعتها وهي تقول بهدوء :

_ عودي إلى غرفتك ، تحتاجين لبعض الراحة .

تماسكت وكتمت خوفها وقالت لها بإصرار :

_ أريد أن أعرف من بداخل هذه الغرفة .

_ لا أحد ، بها فقط بعض الأشياء التي لا نريدها

_ ولكنها مغلقة من الداخل !

_ غير صحيح

_ بل صحيح انظري

واندفعت مريم نحو الباب وأمسكت بمزلاجه لتؤكد لأمها

كلامها ولكن الباب فُتح ..

نظرت مريم إليه بدهشة ، ونظرت لأمها فابتسمت الأخيرة
ابتسامة هادئة وقالت :

_ هيا يا عزيزتي اذهبي إلى غرفتك

قالت مريم بإصرار زائد وتحدي :

_ ليس قبل أن أدخل وأعرف كل شيء

ولم تعطي مريم أمها فرصة لمنعها وهرعت داخل الغرفة
واضاءت نورها ..

لأول وهلة لم تر شيئاً ، ولكن عندما تجولت بعينيها في
الغرفة وجدت شقيقها يجلسان على مقعد طويل قديم في ركن
الغرفة وينظران إليها . توقف الزمن لحظة بينهم هم الأربعة
ولم ينطق واحدا منهم بكلمة . حتى شعرت مريم بيد أمها
وهي تمسك يدها وتسحبها إلى خارج الغرفة ، ولكن مريم

فضولها وعنادها كانا قد بلغا مداهما ، فسحبت يدها من يد

أمها بعنف وقالت بعصبية :

_ لن أخرج من هنا قبل أن أعرف ما الذي يحدث !

_ قلت لك لا شيء .

_ ولكنك قلت أن تلك الغرفة ليس بها أحد وأنت لا تعلمين

أين علاء وخالد .

ثم أشارت بعصبية إليهما واستطردت :

_ وها هما يجلسان بطريقة مريبة في غرفة الخزين التي لا

يدخلها أحد . يجب أن أعرف ما الذي يحدث هنا ؟ وأين أبي؟

فوجئت مريم بأخيها خالد يندفع نحوها ويمسك بكتفيها في

عنف ويصرخ في وجهها :

_ إن لم تكفي عن فضولك وكلامك الكثير ستندمين ، هل

تسمعين ؟

شعرت بأصابعه تنغرز في لحمها مسببة لها ألم شديد . ومع

هذا لم تستسلم وقالت في تحدي :

_ لن تخيفني ولن أبرح هذا المكان حتى تخبروني بما

فعلتموه .

نظر خالد في عينيها بقسوة وقال بصوت ثقيل وهو يضغط

على كل حرف من حروف كلماته :

_ هل تريدان أن تعلمي حقاً ؟

صرخت الأم فجأة :

_ أسكت يا خالد

واجه خالد أمه وهو لا يزال قابضاً على مريم :

_ هي من أتت إلى هنا ، هي المصممة على أن تعرف كل

شيء ، لن تهدأ ولن تصمت ، ولن نضمن سكوتها إلا إذا

أصبحت معنا وشريكة في ما فعلناه .

كانت كلماته تنطلق قاسية وقوية تهدم كل قلاع مريم وثباتها حتى أنها أرادت أن تسحب نفسها من بين يديه وتركض بكل قوتها نحو غرفتها وتختبئ كالطفل الخائف من وحش مخيف . لكنه كان متحكماً فيها ولم يفلتها وهي لم تقو على فعل أي شيء أو التفوه بكلمة ، حاولت الأم أن تقول شيئاً ولكن كان خالداً أسرع منها وجذب ذراع مريم بعنف وأجبرها على السير معه نحو كارافان قديم ، أزاحه بعنف وأمسك برأسها وهو يوجهها نحو شيء ملقى على الأرض وهو يقول

صارخا :

_ أنظري .. أنظري .. هذا ما تريدين رؤيته أليس كذلك؟!!

نظرت مريم ورأت أبشع شيء يمكن أن تراه عيناها طوال

حياتها ، حتى أشد كوابيسها رعباً لم تكن بتلك البشاعة.

رأت أبيها ممددا على الأرض وليس في جسده حيزا صغيرا
واحدا ليس ملطخا بالدم ، كانت جثته مهشمة تماما ، وكأنها
دُكت دكا .

وتم ضربه حتى الموت .

لم تجد مريم صوتها لتصرخ ، لم تجد جدارا لتستند عليه
حتى لا تتهاوى ، لم تجد سماء تمنحها هواء لتتنفس ، أو حتى
تُسقط عليها مطرا ليوقظها من تلك اللحظة الرهيبة التي اختل
فيها كل شيء حولها وداخلها ، لم تنطق ولم تتحرك ، كل ما
تحرك فيها عيناها اللتان اتسعتا على آخرهما ثم أُغلقتا حين
سقطت مريم على الأرض دون حراك ولم تعد تشعر بشيء .

عندما فتحت عينيها مرة أخرى وجدت نفسها على فراش
غريب في حجرة لا تعرفها ، شعرت وكأنها تحلم فأغلقت

عينيها ثانية ولكنها حين فتحتها وجدت نفسها في نفس
الغرفة وعلى ذات الفراش .

حاولت النهوض ولكنها لم تستطع ، كان جسدها ثقيلًا جدا
ومنهكا جدا ولا تقدر على الحركة .

حاولت أن تنادي على أحد ولكن اندفعت في ذاكرتها تلك
اللحظات الأخيرة وجثة أبيها المهشمة فعاد إليها رعبها
ووجدت الدموع تسيل على جانبي عينيها دون إرادة منها ،
ولم تعرف من تنادي !

أمها أم شقيقاها !! قاتلوا أبيها !

ودار في رأسها سؤال أسود : " لماذا لم يقتلونها هي أيضا ؟ "

كيف يبقون عليها بعد أن عرفت سرهم ؟

هل حبهم لها منعهم أم كما قال خالد أنها بمعرفتها بجريمة

قتل أبيها أصبحت شريكة معهم في الجرم !!

ظلت تلك الأفكار تنهشها وعجزها عن الحركة يزيد حالتها

سوأ . حتى فُتح باب الغرفة وظهرت فتاة ترتدي زي

التمريض وتبتسم في وجهها وتقول :

_ حمدا لله على سلامتكم . سأستدعي الطبيب فورا

وانصرفت بسرعة وبعد خمس دقائق عادت ومعها الطبيب

الذي ابتسم لها بدوره وبدأ في وضع السماعة الطبية في أذنه

وهو يهنئها بسلامتها ويقرب منها ويبدأ في الكشف علي

ضربات قلبها وينظر في حدقتها ثم يقيس نبضها كل هذا ولم

تنطق مريم بكلمة وتتأمل كل ما يجري لها في صمت .

وبعد أن أنهى الطبيب من كشفه وجه لها سؤالا :

_ هل تشعرين بأي ألم ؟

حاولت مريم تحريك لسانها لتجيبه ولكنها لم تستطع ،

حاولت وحاولت ولكنها عجزت عن الكلام . نظرت بحيرة

وخوف إلى الطبيب الذي لاحظ محاولاتها ، فوضع يده على كتفها ليهدئها ولكن نظرة الخوف في عينيها لم تهدأ فأمر الممرضة بأن تأتي له بحقنة مهدئة فخرجت مسرعة لتأتي بها . تكلم الطبيب مع مريم محاولاً طمأنتها :

_ بالتأكيد هذه حالة عارضة ، الصدمة العصبية التي تعرضت لها تسببت لك في فقد نطق مؤقت ، لا تخافي ستستعيدين صوتك بعد فترة بسيطة جداً ولكن عليك أن تهدئي .

عادت الممرضة بحقنة المهدئ فحقنها بها الطبيب وغرقت في غيبوبة ولم تعد تشعر بشيء .

في الأيام التي تلت هذا اليوم كانت مريم تستعيد صحتها شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تستعيد صوتها ، زارتها أمها بانتظام كل يوم وزارها شقيقاها ، ولكنها كانت تخشاهم وتخشى حتى

النظر إليهم ، وكانوا لا يتحدثون معها كثيرا ، فقط بعض
الكلمات المشجعة مع دعواتهم لها بالشفاء وينصرفون ،
لاحظ الطبيب حالة الخوف التي كانت تصيبها كلما أتى منهم
أحد ، لهذا أمر بعدم إطالة الزيارة ، والتقليل منها أيضا
وأمر الممرضة أن تبقى معها بصفة شبه مستمرة .

مرت فترة وهي على هذا الحال حتى علمت من طبيبها أنها
ستخرج قريبا من المشفى وستعود إلى بيتها وتكمل علاجها
هناك .

كان هذا الخبر له وقع الصدمة عليها ، كيف تعود لهذا البيت
المخيف وجثة أبيها الملقاة فيه !

مستحيل أن تعود ، يجب أن تمنعهم من أن يعيدونها إلى
هناك ، سيقتلونها هي أيضا ، لن تنسى أبدا وجه أخيها
المخيف وهو يصرخ في وجهها لتتنظر إلى جثة أبيها .

حاولت أن تخبر الطبيب ولم تستطع ، طلبت ورقة وقلم
لتكتب له وتحكي كل ما حدث وتطلب منه ألا يعيدها إليهم ،
ولكنها لم تقو على كتابة كلمة واحدة ، وهل سيصدقها إن
أخبرته ؟ تعرضها لصدمة نفسية وحالة الخرس التي فيها
ينسفان مصداقيتها تماما وما أسهل أن يقولوا عنها أنها تهذي
بتأثير المرض . ولهذا قررت أن تهرب منهم قبل أن
يأخذونها من المستشفى ويعيدونها إلى البيت .

ولكن أين تذهب ! هذا هو السؤال الذي لم تستطع الإجابة
عليه . حتى جاء اليوم الذي أخبرتها أمها فيه بأنها ستخرج
اليوم من المشفى وأشارت إلى حقيبة وضعتها على المقعد
وقالت إن بها ملابس لها وطلبت منها أن ترتديها لتعود معها
إلى البيت .

كان الخبر مخيفا ، هزت رأسها بعنف تعبيراً عن رفضها
وحاولت قدر المستطاع إصدار أصوات رافضة ، خرجت
مبهمة ولكنها كانت كافية لتجعل الأم تخرج من الغرفة سريعاً
لتهدأ إبنتها . ظلت مريم وحدها تفكر ماذا تفعل وأخيراً
قررت أن تهرب ولا يهم أين تذهب ، المهم أن تهرب من
هؤلاء الوحوش . نهضت من فراشها بتثاقل وارتدت الملابس
التي أنت بها أمها . وقبل أن تتجه إلى الباب لتفتحه ظهرت
أمها ورأتها ترتدي ملابسها وتقف على قدميها فابتسمت لها
في ود وقالت لها :

__ أحسنتِ عزيزتي ، وحمداً لله على سلامتِك . هيا بنا لنعود
لبيتنا .

كادت أن تكرر رفضها وتصرخ ولكنها غيرت رأيها وقررت
الصمت حتى تجد فرصة سانحة للهرب . عبرت مع أمها

رواق المشفى حتى وصلت إلى بابها الخارجي والأم تتأبط ذراعها حتى وصلا إلى سيارتهم الخاصة .

فتحت الأم بابها الأمامي وأدخلتها لتجلس ، ثم دارت حول السيارة وصعدت إليها في مكان السائق وقبل أن تدير محركها فتحت مريم باب السيارة وخرجت منها وركضت بكل قوتها . لا تعرف إلى أين ، فقط تعرف أن عليها الركض دون توقف والرحيل بلا عودة .

كان خوفها منهم أكبر من قدرتها على مواجهتهم وأكبر من قدرتها على الصمود أمام تلك الحقيقة البشعة ، وهي أن أمها وشقيقها قتلوا أباهما وربما سيقتلونها هي أيضا .

ركضت كثيرا وبدأت قدماها في خذلانها ، حاولت الصمود ولكن فجأة تهاوى جسدها أرضا ولم تعد تدري بشيء مما حولها ، سمعت همهمات وأصوات متداخله ، ولكنها لم تقو

على فتح عينيها كاملة فبدا كل شيء مبهما ومشوشا . ثم شعرت بأن هناك من يحملها ويتحرك بها فأغمضت عينيها واستسلمت ..

عندما فتحت عينيها من جديد وجدت نفسها في بيت لا تعرفه ووجوه لا تألفها . حاولت أن تسألهم من أنتم ولكنها تذكرت أنها لا تستطيع الكلام فلاذت بالصمت .

بدأوا هم بالحديث معها وسمعت امرأة تقول :
_ حمدا لله على سلامتك ، أنرتِ .

أصدرت هي صوت خافت غير مفهوم فتبادل الأشخاص الموجودون النظر بدهشة أولا ثم بإدراك أنها بكماء ، كانوا امرأة وثلاثة رجال . حاولوا ان يتواصلوا معها وأن يعرفوا اسمها وعنوانها ولكن مريم تظاهرت بفقدان الذاكرة ، فسمعت أحدهم يقول ربما تعرضت لحادث أفقدها النطق

والذاكرة لا بد من أخذها للمشفى وإبلاغ الشرطة ، اشارت لهم بخوف ألا يفعلوا ، نظرت لها المرأة بحنان ثم ربتت على يدها وقالت لهم أنها ستبقيها عندها حتى تتعافى ثم تفهم منها بهدوء من هي وإن لم تصل لنتيجة حينها ستتصل بالشرطة ليبحثوا عن أهلها . بعد انصرافهم جلست بجوارها المرأة وأخبرتها بأنها سقطت أمام بيتها فحملها الرجال وأدخلوها إليها لإفاقتها . ثم قالت :

_ رأيتك من النافذة وانتِ تركضين ، كان يبدو عليكِ الخوف والفرع لهذا عندما سقطتِ طلبت منهم أن يدخلونك عندي لتكوني في أمان ، رأيت نظرة الفرع في عينيكِ حين تحدث الرجال عن عنوانك وعن الشرطة ، فلا تخشي شيئاً و مرحب بكِ هنا حتى تمام التعافي ، أنا أعيش وحدي بعد سفر أبنائي للخارج . ويسعدني أن تكوني ابنتي .

شعرت مريم بالتأثر الشديد من دفاء المرأة وكلماتها الحانية ، فسالت دموعها في صمت وهي تنظر لها بود .

سبعة أشهر مرت وهي تعيش مع تلك المرأة وتتعامل معها كأنها إبنتها .

اشترت لها ملابس جديدة وهاتف وعرضتها على أطباء كثيرين لعلاجها ، وكل مرة كانت تقترح عليها أن تبحث عن أهلها كانت ترفض بشدة وعصبية ، حتى أدركت تلك المرأة الطيبة أن أهل مريم هم السبب في إصابتها بالبكم وتلك الحالة التي وجدتها عليها في الشارع لهذا توقفت عن محاولات إعادتها إليهم وطمأنتها بأنها لن تجبرها على شيء .

وإلى هنا تنتهي القصة عزيزتي ، وتصبحين على خير .

لم أستوعب هذه القصة ولا تلك الخاتمة فكتبت بسرعة :

_ مهلا ريم ، أنا في حالة صدمة ، انتظري لحظة لأجمع

أفكاري

_ حاضر سأتركك دقيقة .

برق في عقلي مائة سؤال وعلامة استفهام ، وأهم سؤال هو :

_ قلت أنك قتلت مريم ، فكيف فعلت هذا ؟ وما علاقتك بها ؟

تأخر الرد حتى خشيت ألا ترد علي ولكن أتاني الرد بعد

دقيقتين :

_ كان لابد لمريم أن تموت لتنتهي تلك القصة لهذا قتلتها ، لم

يعد لمريم وجود ، لم يعد لأحلامها وجود . تركت دراستها

بعد أن كانت الأولى على دفعتها في كلية طب المنصورة

طوال الأعوام الماضية ، كانت هذه هي السنة النهائية لها ،

ولكنها لن تتخرج أبدا . ماتت مريم ، قتلتها لأعيش أنا .

_ ماذا تقصدين ؟ هل ... ؟

_ نعم يا ندى ، أنا مريم .

لم يكن هذا الاعتراف مفاجئاً لي بشكل كامل ، لأن هذا قد

خطر لي عندما كانت ريم تحكي قصة مريم وتصف

مشاعرها وأفكارها ، ولا يمكن لها أن تعرف هذا بتلك الدقة

إلا لو كانتا شخصية واحدة . ولكن بقعة الضوء في هذا

الاعتراف كانت مسلطة على جزء محدد أولاً وهو حقيقة أن

ريم بكما لهذا رفضت أن تحدثني هاتفياً ، وثانياً هو جريمة

القتل التي ارتكبتها أسرتها في حق أبيهم !! هذا بالفعل شيء

رهيب ..

_ ريم هل حقا تلك القصة حقيقية ؟ ألا تتلاعبين بي بأي

شكل ؟ تمزحين معي مثلاً ؟

_ ما هذا الذي تقولينه ؟ كيف يتخيل عقلك أنني ممكن أن
أمزح في شيء كهذا ؟ أنا آسفة لأنني أضعت وقتك ووقتي
في تلك السخافات . سلام

_ انتظري لم أقصد ، أردت فقط أن أتأكد

لم ترد ، أرسلت لها رسائل أخرى ولكنها لم تفتحها ولم ترد
على أي منها ، ظلت يومين كاملين أرسلها وهي تتجاهل
رسائلي . شعرت أن رد فعلها مبالغ فيه ، فلم أقل شيئاً
يستحق هذا الغضب والتجاهل ، أي إنسان مكاني كان
سيرفض أن يصدق هذا لأول وهلة ، طبيعي أن أسأل وأتأكد .
هل كانت تتوقع مني أن أتقبل كل ما قالته هكذا دون دهشة أو
سؤال !

تبالها لماذا لا ترد علي ! لماذا تتركني هكذا أدور في حلقات
مفرغة ؟ إن كان ما قالته حقيقي فهي تحتاج لمن يساعدها

ويعيد لها حياتها ، ويكشف جريمة عائلتها فما فعلوه حقا بشع
حتى وإن كان الأب بهذا السوء فلا يحق لهم قتله أبدا .

ظللت أتخبط في تلك الأفكار ليلا ونهارا حتى شعرت بأن
رأسي سينفجر من التفكير والدوران ، لهذا قررت أن أتأكد
بنفسي ، نعم بداخلي شك وعلّي أن أنفيه أو أثبته ، إن كانت
ريم تتلاعب بي حينها سأنهاي صداقتي بها فلا أحب أن
يتلاعب بي أحد ، أما إذا كانت صادقة فحقها عليّ ان أمد لها
يد العون وأن أساعدها بأي طريقة لتعود لجامعتها وحياتها
وأن يتم عقاب هؤلاء المجرمين الذين دمروا حياتها وأفقدوها
النطق .

الجامعة ... نعم ستكون هي بداية بحثي ، تلك المعلومات
المتناثرة التي قالتها ريم أستطيع أن أجعل منها خارطة
طريق أهتدي بها إلى الحقيقة .

بعد أن أنهيت يومي كالمعتاد ونام الأولاد جلست وحدي ليلا
بعد أن أرسلت الرسالة رقم عشرين إلى ريم ولم يأتيني منها
رد ، بدأت بورقة وقلم أكتب المعلومات التي ستساعدني في
البحث .

١ _ اسمها الحقيقي مريم

٢ _ في السنة النهائية بكلية الطب جامعة المنصورة

٣ _ متفوقة والأولى على دفعتها أربعة أعوام متتالية

٤ _ ليس لها أصدقاء ومنطوية ولكنها محبوبة بشكل عام

وسمعتها جيدة بالجامعة

٥ _ والدها رجل أعمال كبير اختفى أو مات منذ عدة أشهر

٦_ لديها شقيقين أكبر منها أحدهما اسمه علاء والثاني خالد

٧_ تعيش حاليا مع امرأة عجوز سافر أولادها إلى الخارج

٨_ بكماء

حاولت أن أعصر ذهني لأصل إلى معلومات أكثر فلم أصل إلى شيء ، فتحت الماسينجر وراجعت الرسائل الأخيرة التي روت فيها حكايتها فلم أجد معلومة جديدة فاكتفيت بتلك النقاط الثمانية وقررت أن أبدأ البحث من الغد ، أغمضت عيني في إرهاق ونمت نوما قلقا مليء بالأحلام الغريبة .

في الصباح وبعد أن أعدت الإفطار لأطفالي اتصلت بصديقتي هالة وطلبت منها أن تأتيني لتبقى مع الأولاد لأن لدي مشوار هام جدا ، لم تخذلني كعادتها وجاءتني بعد ساعة كنت قد تجهزت فيها للسفر . نعم للسفر فأنا أعيش في محافظة الجيزة وكلية ريم في المنصورة ، ودعت الأولاد

واوصيتهم على هالة وتوسلت إليهم ألا يصيبونها بالجنون
حتى عودتي . لم أخبر هالة بقصة ريم ولا سبب سفري ، بل
لم أخبرها بسفري من الأساس ولكن قلت لها أنني سأروي
لها كل شيء عندما أعود إن شاء الله .

كانت الساعة التاسعة صباحا واستطيع أن أصل إلى
المنصورة في ساعتين وبضع دقائق وهذا ما كان ، ذهبت
بالباص ووصلت إلى المنصورة .

المنصورة مدينة جميلة جدا ، لولا أنني قدمت إليها في مهمة
جيمس بونديه لكنت تمتعت بمعالمها السياحية المشرقة ،
يكفي أن تعلموا أن اسمها قديما هو " جزيرة الورد " لجمال
حدائقها وروعة أشجارها . درسنا بعض المعلومات عنها في
المدرسة ونحن صغار باعتبارها المدينة التي هُزم فيها لويس
التاسع وتم أسره وسجنه في دار ابن لقمان ، هذه الدار

الشاهدة على التاريخ كله ، يقال أن لها بابا كبيرا والآخر
صغير تم بنائه خصيصا ليدخل منه لويس التاسع محني
الظهر لإهانتته . هذه الحملات الصليبية كنا ندرسها وكأنها
حملات كوكب المريخ على كوكب المشترى ، لم ندرسها
بإحساس كافي ، لم نستشعر آلام العرب وهؤلاء الفرنجة
يأتون من آخر الدنيا ليقتلوهم ويسلبوهم أرضهم وينهبون
خيراتها . كنا ونحن صغار نمزح من اسمها ولا تخلو حصة
التاريخ من بعض الأسئلة العميقة ، فمثلا تقف تلك الفتاة
العبقرية التي تسأل المعلمة بثقة " هي ازاي تبقا الحملة
السابعة وقائدها لويس التاسع ؟ "

طبعا هي تسأل هذا السؤال الجهد باعتبار أن القائد يأخذ رقم
الحملة ! والعجيب ليس سؤال البنت ، ولا نظرة التطلع
وانتظار الإجابة التي نظرنا بها إلى المعلمة بعد أن أنهت

البنيت سؤالها ، العجيب حقا هي علامات التفكير في السؤال
التي ظهرت على ملامح المعلمة .. !!

خرجت من الباص وأشرت لسيارة أجرة وطلبت منه أن
يذهب بي إلى كلية الطب ، دخلت من بوابتها وأنا أتذكر أيام
دراستي في الجامعة ، للجامعات رائحة خاصة ، رائحة
الشباب والطموح والأحلام الوردية ، وكأننا بعد التخرج
سنخرق الأرض ونحتل السماء ، ولكن واقع الحال هو أننا
خرقنا مائة كيلو كوسه وأربعمائة كيلو باذنجان في موقعة
المحشي المجيدة وتم احتلالنا من جميع القوات المتمركزة
على حدودنا وانتهى الأمر .

أعادت لي رائحة كلية الطب ، رائحة حلمي القديم بأن أصبح
طبيبة ، أظن معظم الأطفال يتمنون أن يصبحوا أطباء ، ربما
هذا هو السبب في تأخر مهنة الطب عندنا ، فلا يدخلها من

يحبها بقدر من يدخلها بحثا عن اللقب فقط . بعد سؤال أحد
المارة في الكلية وصلت إلى شئون الطلبة . المعلومات التي
أحملها جيدة ، فالبحت عن فتاة كانت في السنة النهائية أي في
السنة الخامسة ، والأولى على دفعتها أربعة سنوات متتالية
ولم تدخل الامتحان النهائي وأسمها مريم . هذه المعلومات
جعلت البحث مسألة سهلة جدا ، ولكن تكمن المشكلة في
سؤال هام : " كيف سيقبل موظف شئون الطلبة أن يبحث لي
عنها ويأتيني باسمها كاملا و عنوانها ؟ بالتأكيد سيسألني عن
شخصيتي وعن سبب بحثي عن مريم ؟ والإجابة عن هذين
السؤالين ستظهرني كمجنونة .

لهذا قررت ألا أجيب وألا أعطيه الفرصة ليسأل . مائة جنية
تكلت بالنيابة عني وتكفلت بكل شيء . وملكتم الورقة
التمينة التي بها اسم مريم بالكامل و عنوانها .

الآن تأكدت من وجود شخصية بالفعل باسم مريم وكل تلك التفاصيل ، علي الآن أن أتأكد من نصف القصة الآخر وهو مسألة هروبها وجريمة قتل أبيها .

طبعاً عقلي ظل يدق نواقيس الخطر ويطلب مني أن أكتفي بما وصلت إليه ، وطالما أن ريم لم تكذب في هذا الجزء فهي بالتأكيد لم تكذب في الجزء الآخر . ولكن بسبب بشاعة الجزء الآخر وصعوبة تصديقه كان لابد أن أتأكد . ولكي أتأكد كان لابد أن أذهب إلى موقع الجريمة وأحوم حوله لأعرف مصير الأب وابنته ، فإن كان مختفياً أو متوفياً وابنته مختفية أيضاً ، فكل ما قالته ريم هو حقيقة مؤكدة وعلي أن أساعدها كما ساعدتني في نصائحها الجميلة لي والتي جعلت بيتي أكثر هدوءاً وحياتي أكثر انسجاماً .

خرجت من الجامعة واستأجرت سيارة وأعطيت سائقها العنوان والذي أخبرني أنه يبعد نصف ساعة تقريبا عن مقر

الجامعة ، فجلست في المقعد الخلفي في استرخاء لأفكر في
ما أنا مقدمه عليه ، ثم أخرجت هاتفي وكتبت رسالة أخيرة
لريم ، رجوتها فيها أن ترد عليّ ، وبالفعل بعد ثلاثة دقائق
وجدت منها رسالة :

_ أعتذر لأنني لم أرد على رسائلك السابقة .

كتبت بلهفة :

_ بل أنا التي أعتذر لما قلته ، أنا أصدقك عزيزتي وأعلم
أنك لا تتلاعبين بي .

_ هذا جيد ، كيف حالك ؟

_ الحمد لله بخير ، وأنتِ ؟

_ الحمد لله بخير أيضا

حاولت أن امازحها فقلت :

_ أخبريني لما اشتريت لكِ تلك المرأة هاتفا ؟

بعد أن كتبت السؤال أحسست بسخافة ما قلت .

_ لتطمئن عليَ عندما تخرج من البيت ولأستدعيها إن حدث

شيء أو احتجتها في شيء وأحياناً نتحدث عن طريق

الواتساب إذا كان هناك شيء ما يحتاج للحديث والتحاور .

كما أنها تملك حاسوباً يخص أحد ابنائها ، أعطته لي

لأستخدمه .

_ عفوا عزيزتي أردت أن أمارحك ولكن كعادتي أكتب

الكلمات الخاطئة ، أرجوك لا تغضبي مني .

_ لا يا ندى ، فأنا أعرفك وأعرف طبيبتك وتلقائيتك . ومن

يعرفك جيداً لا يغضب منك أبداً . اعتذر منك فلا بد أن أغلق

الآن فأمي تناديني . سلام

_ أمك !؟

_ نعم أمي ، لم أشعر بأن لي أما إلا عندما جنئت إلى هذا البيت .

_ حسنا عزيزتي لن أعطلك ، في رعاية الله ، سلام

لا أعرف لماذا عندما قالت هذا شعرت بضيق ، ربما لأن علاقتي بأمي أنا أيضا ليست على وفاق كامل ! طبعا أمي لم تقتل أبي والحمد لله ، وهي طيبة وحنونة ولكنها لم تحاول أن تقترب مني وأن تكون صديقتي ، دائما تقول أنتم لكم رأس وأنا لي رأس . تقصد طريقة تفكير مختلفة . لا نتفق على رأي في معظم المواضيع التي نتكلم فيها أو الأمور التي نتناقش فيها ، فتنهي هي الجدل بهذه العبارة التي لا تحل ولا تربط " أنتم لكم رأس وأنا لي رأس " .

هل ترونني الآن نمروده كما تحب أمي أن تسميني أحيانا ؟

وهبني الله عائلة ذات سمعة جيدة وأصل طيب ، وزوج

حنون وثلاثة أطفال أذكاء ، وأعيش في مستوى مادي
معقول ، وبرغم هذا لا أتوقف عن الشكوى .. نعم أحيانا
أعترف لنفسي بأنني نمروده ولمن لا يعرف معنى كلمة
نمروده منكم فليسمع هذا الدرس اللغوي الصغير :

كلمة نمروده مشتقة من اسم النمرود ، وهو ملك مصري
جبار في عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام . كان كافرا وظالما
طبعاً لا تشبهني أمي به في كفره وظلمه حاشا لله ، بل لأنني
لا أَرْضَى ، ودائماً اتطلع لشيء بعيد لا أملكه . أتكلم معكم
بصراحة ، لأنكم شخصيات خيالية ، أتخيلكم تجلسون أمامي
وتنصتون إلى ما أكتبه ، فلم أشأ أن تمر تلك التجربة التي
مررت بها دون تأريخ وتوثيق لكل أحداثها ، ليست رواية
أكتبها ثم أعطيها للقراء ليصفقوا لي على براعتي في الكتابة ،
بل أكتبها لأقرأها أنا مرارا ومرارا ، أتخذها شاهداً عليّ أمام

نفسى حتى لا تختل عجلة القيادة من يدي مرة أخرى ، لتكن
لي تذكرة وعبرة وعلامات على الطريق ، ولكي أعطي
لنفسى تحفيز على الاستمرارية في الكتابة تخيلت أنني أكتبها
لكم يا قرائي الخياليين الأعزاء ، ولأنكم من بنات أفكاري
فليس مسموحا لكم بالقفز إلى أي نتائج لم أوصلكم أنا إليها .

وصلت السيارة إلى العنوان ، فيلا أنيقة من دورين بحديقة
كبيرة .

اقتربت من سورها برهبة ، ونواقيس الخطر في رأسي تدق
وقلبي يدق وبدأت أشعر أنني على وشك الإغماء بسبب حفلة
الباند تلك . كنت قد أعددت ما سأقوله ، سأقول لهم بأنني
معيدة في الكلية وجئت لأسأل عن مريم عندما علمت بأنها لم
تحضر الامتحان النهائي لأنني كنت أتوقع لها مستقبلا باهرا

ولكن عندما وصلت إلى بوابة الفيلا شعرت بتفاهة ما سأقوله
وعواره وأنه سهل كشفه بمكالمة تليفونية واحدة للكلية .
وسيعلمون حينها أنه لا توجد معيدة بهذا الاسم . وقررت
الرجوع والعودة من حيث أتيت ولعنت فضولي وتطفلي
والفايسبوك ومارك وكل من ساعد وعاون وشارك في
وصولي إلى ذلك المكان الغامض الرهيب .

وغيرت اتجاهي بالفعل عائدة من حيث أتيت ولكن لمحت
سيارة بي إم دبليو رمادية اللون تقترب من الفيلا وتوقفت
أمامي مباشرة وهبط منها شاب وامرأة في الخمسين من
العمر تقريبا ، أنيقة وملامحها حلوة برغم عمرها ، وتذكرت
وصف ريم لأمها وقلت لنفسني بالتأكيد هي أمها وهذا الشاب
الأسمر مفتول العضلات ذي الشارب الخفيف والشعر
القصير هو أخيها ، ولكن لم أدر أيهما هو .

وقفت المرأة أمامي ونظرت لي متسائلة والشاب سارع

بالسؤال بأدب :

_ أهلا بكِ ، من حضرتك ؟

كل ما كنت قد أعددتَه هرب من رأسي ، ذلك الهجوم

المباغت لم أكن مستعدة له وخاصة أنني كنت قد قررت

التراجع وإنهاء تلك المغامرة الغبية .

قلت بصوت متلعثم :

_ أنا .. أنا .. جئت أسأل عن مريم .

بمجرد أن نطقت اسمها جاء دورهما ليتغير لون وجهيهما

ويبدو الاضطراب والمفاجأة عليهما . وسارعت الأم بسؤالني:

_ من أين تعرفينها ؟ وأين هي ؟!

_ لا أعرف ، أتيت لأسأل عنها

_ منذ متى تعرفينها وكيف ؟

ولم أشعر بنفسي إلا وقلت أول شيء خطر على بالي وهو
أنها زميلتي في الجامعة ، وكان هذا أغبى شيء قلته في
حياتي ، وسأظل طوال عمري أتذكر كذبتني الساذجة هذه
وأضحك ساخرة من كمية الغباء التي نضحت من تلك الكذبة
، فهي لم تنطلي عليهم أبدا ، واحاطتني نظراتهم المتشككة
وفوجئت بالشاب يقول :

__ تفضلي للداخل لنكمل حديثنا .

حاولت التملص ، لن أدخل أبدا تلك المصيدة بقدمي .

__ لا شكرا ، جئت لأطمئن على مريم فقط ويجب أن أذهب

الآن وتحركت خطوة للأمام لكن فوجئت بالشاب يمسك

ذراعي ويسحبني إلى داخل الفيلا وهو يقول :

__ هذا لا يصح ، يجب أن تتفضلي معنا ، لدينا الكثير لنقوله

صرخت فيه أن يتركني وحاولت أن انزع ذراعي منه ولكن
قبضته كانت قوية جدا ، وتذكرت ما قالته ريم عن أخيها
الذي أمسك بذراعها وأجبرها على أن تنظر لجثة أبيها
وتسبب في فقدانها للنطق .

كان الأمر عنيفا ، ولم استطع الفرار من قبضته أبدا برغم
صراخي وسبي له ولأمه واستتجادي بالناس ، ولكن لم
يسمعني أحد ، فالفيلا في منطقة منعزلة . وهذا الحقير
حارس الفيلا الذي كان يقف خلف البوابة ورآهم وهم
يأسرونني أكتفى بنظرة فضولية ولم يحاول انقاذي ولم أجد
بد في النهاية من الاستسلام . ووجدت نفسي ألج معهما إلى
داخل الفيلا وأجلسني الشاب على مقعد وثير في غرفة مكتب
. ولم يفلتني من يده إلا عندما جلست وشعر مني بعدم مقاومة
بدأت الأم الحديث :

_ أنا أعتذر لكِ عن تلك الطريقة الخشنة التي عاملت بها

إبني. لكن نحن نبحث عن مريم منذ فترة وأن نجد أحدا

يعرفها هو أمل جديد يشق طريقه إلينا.

_ اعتذارك مرفوض طالما أنكم تحتجزونني هنا ، وأنا لا

أعرف أين هي ، لو كنت أعرف مكانها ما كنت جئت لأسأل

عنها .

قال الشاب وهو عاقد ذراعيه في تحدي أمامي :

_ ربما هي التي أرسلتك

قلت بسذاجة :

_ولماذا ترسلني ؟

نظرا لبعضهما ثم جلست الأم قبالي وقالت بهدوء :

_ اسمعي يا ابنتي نحن نريد أن نعرف مكانها ، هي مختفية
عنا منذ شهر ، هل تتخيلي قلب أم فقدت ابنتها ولا تعرف
طريقها ؟ أنا أموت كل يوم ، أرجوكِ أخبريني أين هي .

_ قلت لكِ لا أعرف

هتف الشاب في وجهي صارخا :

_ بل تعرفين ، لا نصدق أنكِ زميلتها في الجامعة ، أنتِ
في الثلاثينيات من العمر تقريبا وفي إصبعك خاتم زواج
كيف ما زلتِ طالبة طب ! كما أن مريم لم يكن لها صديقات

كدت أقول لهم أن الحمل والولادة وتربية الأطفال هم الذين
كبروني قبل الأوان ، ولكن الحمد لله أنني لم أقل هذا فهو كان
سخيفا ومكشوبا جدا وسيزيد الطين بلة .

ثم أن هذا الشاب الهمجي المتوحش قام بحركة لم أتوقعها
أبدا.

فجأة وبدون مقدمات جذب حقيبتني التي كنت أضعها على
رجلي وألعب بتوتر في يدها . أصبحت الحقيبة في يده وأنا
انتفضت صارخة متهمة إياه بكل ما خطر على بالي من
صفات مثل : لص متوحش همجي . وختمت هذا السيل
بجملة " أعطني الحقيبة فوراً " .

ولكنه نظر لي باستخفاف ثم فتح الحقيبة ، حاولت الوصول
إليه ونزعها منها قبل أن يمد يده داخلها ، فوقفت تلك المرأة
الحيزبون بيني وبينه ، كان الأمر يخرج من يدي وخارطة
الطريق قد سارت فوقها دبابة فدمرتها تدميرا ، وارتجالي
كله كان حماقة أوصلتني لذلك الموقف المخزي .

أخرج كيس نقودي ونظر فيه ثم ألقاه جانبا ، وبعدها أخرج ما كنت أخشاه وهو الحافظة الصغيرة التي أحتفظ فيها بأوراقى وأهمها بطاقة هويتي .

بالطبع عندما قرأ بياناتها ابتسم ابتسامة خبيثة جدا ولوح بها أمامي ثم أعطها لأمه وهو يقول :

_ كيف لخريجة كلية آداب أن تكون طالبة في كلية الطب ؟
قلت ببلاهة :

_ أحب الدراسة وجمع الشهادات .

كل مرة أنطق فيها أتفوه بكلمات غبية ، كيف أسكت لساني
الأحمق هذا !

بالطبع هذا الثعلب لم يصدقني وابتسامته الخبيثة اتسعت وفتح المحفظة مرة أخرى وأخرج صورة أولادي وقال ساخرا :

_ طبعا هؤلاء أولادك يا طالبة الطب الكبيرة .

نظرت إليه بغیظ وقبل أن أتفوه بكلمة واجهتني أمه وقالت

بغضب :

_ يكفي هذا ، لن نستمر في تلك المسرحية الهزلية . أخبرينا

من أنتِ وأين ابنتي .

كانت المرأة تبدو قوية ولكن هل هي قاتلة حقا ؟ لا أعرف

لما فكرت في هذا السؤال في تلك اللحظة . ربما لأنني

أحسست بالخوف من نظرة عينيها ، وتخيلت أنها ستأمر

ابنها بقتلي ، وربما تقتلني هي بيديها ، ما روته ريم عن

طريقة موت أبيها وتهشيم جثته يدل على أنهم قادرين على

فعل أي شيء .

كانت المرأة تنظر في عيني مباشرة وتنتظر إجابة . وكانت

إجابتي كالتالي :

_ لا أعرف أين ابنتكم ، تكلمت معها على الفايسبوك ولا أعلم أين هي .

نعم أعلم أنني تغابيت للمرة العاشرة ، ولكن ظننت إن قلت الحقيقة وأني بالفعل لا أعرف مكانها سينتهي هذا التحقيق وأعود لبيتي وأولادي وأترك نهائياً دور مس ماربل الذي لعبته بهذا الحمق .

_ هل تريدان منّا أن نصدق هذا ؟

_ نعم لأنها الحقيقة .

صرخ أخيها كعادته :

_ أي حقيقة في هذا العبث !

_ أنا بالفعل تعرفت على مريم في الفايسبوك ، روت لي

قصتها فأردت أن أتأكد من كلامها فجئت إلى هنا .

نظرت لي الأم بحذر وهي تقول ببطء :

_ وما الذي روته لك بالضبط ؟

هنا أسقط في يدي ولم أدر ماذا أقول . الحقيقة الكاملة هي بمثابة إعلان لموتي ، لن يتركوني أبدا ارحل في سلام إذا أخبرتهم أنني أعلم بجريمتهم ، لهذا كان يجب ألا أذكر الحقيقة كاملة ، وليس أمامي غير الكذب ، وأنتم تعلمون أنني لست بارعة فيه ...

_ هي قالت أنها تركت أهلها لأنهم يريدون تزويجها من رجل لا تحبه وهي تريد أن تكمل دراستها . فرغبت في أن أتأكد من كلامها وإن كان حقيقة أحاول إقناعكم بالعدول عن تلك الزيجة وتركها تكمل تعليمها وتختار شريك حياتها الذي تريده هي وليس الذي تم فرضه عليها .

نظرات الشك أحاطتني ، لم يصدقا كذبتني ، هذا كان واضحا
عليهما ، ربما لعلمهما أن مريم أذكى من أن تروي شيئا كهذا
أو لأنني لم أكذب ببراعة كافية .

ولكن على الرغم من نظرات الشك تلك وجدت المرأة تربت
على كتفي وتقول لي :

_ أنتِ صديقة رائعة وطيبة جدا ، يسعدني أن تجد ابنتي
صديقة مثلك تشكي لها وتفضض معها .

ثم أشارت نحو المقعد الذي خلفي وهي تقول بتودد :

_ اجلسي يا ابنتي بدأنا بداية خاطئة وكنا في غاية قلة الذوق
معك . أكرر اعتذاري واتمنى أن تتقبله وأن تصفحي عنا
وتعذرينا ، غياب مريم حطما .

هزرت رأسي متفهمة لموقفها وجلست في هدوء وقلبي

يرتجف ، فهذا الأسلوب الجديد أرابني كثيرا وشعرت بأن

هذه المرأة أذكى مما أظن ، وتلك الاستراتيجية الجديدة التي
قررت أن تعاملني بها هي مصيدة ذكية تلتف حولي ببطء .

قالت بابتسامة ذكرتني بابتسامة ريا وهي ترحب بضحاياها :

_ ماذا تشربين عزيزتي ؟

وعندها تذكرت أيضا ريا وسكينة والمشروب الذي يقدمانه
لضحيتهما قبل خنقها فزاد ارتجاف قلبي وحاولت جاهدة ألا
يبدو شيئاً من تلك المعركة المستعرة داخلي :

_ شكرا لا أريد شيئاً ، أسمح لي فقط بأخذ حقيبتي والعودة
إلى بيتي فأولادي وحدهم في البيت .

اتسعت ابتسامة ريا ونظرتها زادت تركيزا في عيني وهي

تقول :

_ نحن لا نحتجزك هنا عزيزتي ، تستطيعين الرحيل في أي

وقت شئتِ . ولكن أنا أم مثلك تموت كل يوم شوقا لابنتها

وخوفا عليها ، بالتأكيد تفهمين لهفتي على عودتها .

ثم مدت يدها ووضعتها على يدي وقالت بصوت متهدج يثير

التعاطف :

_ أرجوكِ أخبريني بمكانها ، وأعدك بأننا لن نجبرها على

شيء ولن نعمل ما يغضبها أو يضايقها منّا . اشتقت لها وأريد

أن أراها وأطمئن عليها .

لا أخفي عليكم أن كلامها أثر في ، شعرت بصدقه وتعاطفت

بالفعل معها ونسيت للحظة تلك الجريمة البشعة التي قالت

مريم أن أمها ارتكبتها بالمشاركة مع شقيقها ، فمن تحدثت

الآن ليست تلك القاتلة أبدا .

_ صدقيني أنا لا أعرف أين هي . تحدثت معها على

الفايسبوك فقط ولم تعطني أي معلومات عن المكان المتواجدة فيه .

قال أخيها بعصبية وهو يشوح بيده وبدا عليه نفاذ الصبر :

_ كيف تعطيكِ عنوان فيلتنا وتروي كل شيء عنا ولا

تخبرك بمكان اختبائها؟! !! توقفي عن الكذب علينا وإلا ..

_ خالد .

اسكته أمه عندما هتفت باسمه قبل أن يكمل تهديده ، ولا

أظن أنني كنت بحاجة لسماع باقي هذا التهديد . فالأمر كان

واضحا جدا ومخيفا أيضا .

وقفت والاضطراب يشملني من رأسي حتى أخمص قدمي

ولم أعد استطع التحكم في أعصابي وبدا كل شيء خارج

السيطرة تماما . وهتفت وصوتي يرتجف :

_ أنتم مجرمون ولن يستطع أحد منكم أن يمسنني بسوء ،
زوجي يعلم أنني هنا ، وإن لم أعد فورا إلى البيت سيأتي
بالشرطة إليكم ، لست لقمة سائغة كما تظنون ولن أكون أبدا
ضحيتكم الثانية .

أعتقد أنني قلت أكثر مما ينبغي ، فلقد رأيت حدقة المرأة
تتسع والشفة العليا لابنها ترتجف في عصبية وتوقف المشهد
تماما وكأننا أصبحنا تماثيل من الشمع ..

وفجأة شق هذا الصمت الصاخب صوت هاتف خالد ، فوضع
يده في جيبه ببطء وأخرج هاتفه وفتحه وتحدث مع الطرف
الثاني بصوت خافت ولكن سمعته يقول له " دعك من هذا
الآن وتعالى فورا " ثم أغلق الهاتف ونظرته لم تنزل من
علي وجهي . الذي لم أكن أدري بأي لون أصبح . أعتقد أن
كل الألوان قد مرت عليه في تلك اللحظات الرهيبة .

تحركت نحو حقيبتى التي القى بها وبمحتوياتها على الأريكة
. بدأت في إعادة أشياءى المتناثرة داخلها وأنا أعلم أن
نظراتهما مسلطة عليّ ولا أدري ما الذي سيحدث في اللحظة
القادمة ولكنني عزمتم على الخروج بأي شكل . فكل دقيقة
أقضيها هنا ليست في صالحى وخوفى قد بلغ منتهاه .
ولكن لا يجب أن أستسلم ، يجب أن أعود لأطفالى ، فكرة أن
أموت اليوم وأن يتم حرمانهم منى جعلت قلبى يخفق بقوة .
انتهيت من جمع أشياءى وحملت حقيبتى واعتدلت فى وقفتى
ثم توجهت إلى الباب وأنا مترقبة لأي رد فعل لهما أو أى
محاولة لمنعى ، ومع كل خطوة كان قلبى يدق بعنف أكثر
وتوترى يبدو على وجهى أكثر ولكن حافظت على ثباتى
وانتباهى لأي رد فعل مفاجئ منهما .

ووصلت إلى الباب وفتحته وعبرت منه وأنا لا أصدق أنهما
لم يتحركا لمنعي وخشيت أن ألتفت ورائي فسارعت من
خطواتي لأصل إلى البوابة الخارجية لفيلا الرعب هذه قبل
أن يغيرا رأيهما ويتبعاني .

وعبرت البوابة ووصلت إلى الشارع وأنا ما زلت غير
مصدقة ولا مستوعبة لحقيقة تركهما لي بهذه البساطة بعد أن
كشفت لهم برعونتي أنني أعرف بجريمتهما . ولكن ربما
تهديدي لهما بزوجي وبأنه سيأتي بالشرطة أثار خوفهما !
لست واثقة من هذا ولكن المهم أنني الآن حرة وعلى قيد
الحياة وأسير في الشارع وحدي وسأعود إلى بيتي فورا ولن
أفكر ثانية أبدا في أن أدخل وكرا للذئاب أو أضع يدي في
شق للثعابين أو أن أتدخل في شأن لا يخصني . هذا الدرس
كاد أن يكون ثمنه حياتي ويُتم أولادي .

لمحت سيارة أجرة أشرت لها فتوقفت فدخلت داخلها سريعا
وطلبت من السائق أن يتجه بي إلى موقف الباص لأسافر
عائدة إلى بيتي ، وطوال الطريق وأنا أتلفت ورائي مخافة أن
يكونا قد قررا متابعتي .

وحيثما أصبحت في الباص تنفست الصعداء وأغلقت عيني
في راحة وسعادة وكأن كل ما مر بي كان حلما بشعا
واستيقظت منه و الحمد لله .

الفصل الثالث

وأخيرا وصلت إلى بيتي ، لم تسعني فرحتي وركضت
ركضا على الدرج حتى وصلت إلى باب شقتي ، أخرجت

المفتاح بيد مرتعشة ملهوفة وفتحت الباب واندفعت إلى غرفة
أولادي وجدتهم يلعبون وهم جالسون على الأرض ، فهبطت
وسطهم على ركبتي وعانقتهم بلهفة وشوق وبكيت وأنا بين
أحضانهم ، كل الخوف الذي شعرت به والساعات الرهيبة
التي عشتها تخلصت منها في معانقة أولادي ، وبين
أحضانهم تحسست حقيقة وجودي على قيد الحياة وأني
خرجت من هذا الكابوس الرهيب بسلام وعدت للأغامي
الرائعة .

سمعت صوت هالة من ورائي وهي تقول :

__ حمدا لله على سلامتك يا ندى .

التفت إليها فنظرت لي بدهشة عندما لمحت دموعي وسألتنني

بجزع :

__ ما بك عزيزتي ؟ ماذا حدث !؟

_ أنا بخير ، الحمد لله . أشكرك جدا لاعتنائك بأطفالي .

كررت في حيرة :

_ ماذا حدث !!؟

تنهدت ووقفت أمامها وعانقتها وقلت لها سأخبرك بكل شيء

، ولكن لا تقلبي حبيبتي أنا بخير صدقيني .

ربتت على ظهري وسمعتها تقول " الحمد لله " .

بعد أن أخذت دشاً دافئاً وارتديت قميصاً مريحاً وصففت

شعري وصليت خرجت من غرفتي فوجدت هالة الرائحة قد

أعدت لي الغداء وتجلس على المائدة في انتظار خروجي .

ابتسمت لها بحب فهي أجمل صديقة رزقني الله بها ، هي

أقرب لي من أختي لهذا طلبت منها هي أن تعتنني بأطفالي في

غيابي فلم أكن لأطمئن عليهم إلا معها ، حتى زوجي يعاملها
كأختي ويعتبرها فردا من العائلة وهي بالفعل كذلك .

جلست معها على المائدة وقلت لها إنني فعلا جائعة جدا ،
تركنتي أكل في هدوء ولم تلح عليّ بالأسئلة مع أنني أرى
علامات الاستفهام تقفز من عينيها كلما التقت نظرانا .

وأنا لم أشأ أن أحكي لها خارج غرفتي ، خشيت أن يسمعي
الأولاد . لهذا انتظرت حتى انتهيت من تناول الغداء ورفعت
الأطباق وادخلتها للمطبخ وهالة أعدت لنا القهوة ودخلنا إلى
غرفتي وجلسنا على الفراش . شعرت براحة شديدة وأنا على
فراشي الوثير الرائع .

قلت لهالة وأنا أتمدد على الفراش في متعة وراحة :

_ لا نقدر قيمة حياتنا المملة إلا عندما نعيش لحظات رهيبية

تجعلنا نشاق لكل الملل الذي كنا نعيش فيه . فلا شيء

يضاهي إحساسنا بالأمان وبأن أحبائنا بخير .

_ نعم كلامك صحيح ، ولكن لو شرحت لي ما حدث معك

في الساعات الماضية وأين كنت سأفهم قصدك أكثر .

اعتدلت وجلست أمامها مباشرة وأنا اتناول فنجال القهوة من

على الكوميديون وأرشف منه أول رشفة بتلذذ . بدأت في

قص كل شيء على هالة من أول فضولي الذي قادني إلى

ريم مرورا بقصتها التي حكتها لي انتهاء بفيلا الرعب وما

حدث فيها ثم عودتي إلى هنا .

كنت أروي كل شيء بالتفصيل كما رويته لكم . وكانت عين

هالة تتسع مع كل مفاجأة أو موقف خطير . وأنا كنت

مستمتعة بتعبيرات وجهها المندهشة ، شعرت في تلك اللحظة

بمتعة أن أكون بطلة مغامرة كبرى أشرفت بي على الموت
ثم عدت منها بسلام . فمغامرة بهذا الشكل لإمرأة مثلي لا
تتكرر كثيرا .

انهيت كلامي ولذت بالصمت في انتظار تعليقها ، ولكنها
اطرقت دقيقة شعرت بها طويلة جدا حتى رفعت رأسها
وقالت لي بقلق :

_ لا أظن الأمر انتهى عند هذا الحد .

_ لماذا ؟ قلت لهم أنني لا أعرف مكان مريم وهذه حقيقة ولا
أملك دليلا من أي نوع على جريمتهم وبالتالي لست خطرا
عليهم بأي شكل لهذا عندما هددتهم بزواجي تركوني أرحل
دون أي ممانعة منهم ، لو أرادوا أذيتي لما كنت أمامك الآن
. فلقد كنت في عقر دارهم وبين أيديهم .

قالت هالة والقلق لازال مسيطرا على صوتها :

_ يا ندى أنظري للأمر بعمق أكثر . تركهم لك ليس معناه أن

خطرهم عليك قد زال . هم تركوك لأنك قلت أن زوجك

ينتظرك وسيبلغ الشرطة إن تأخرت ، وسواء اقتنعوا بكذبتك

هذه أم لا فهم تركوك لهدف آخر أيضا ، وهو الوصول لمريم

. لم يصدقوا أنك لا تعلمين أين تختبئ . وأنت الخيط الوحيد

الذي سيقودهم إليها . لهذا أقول لك أن الأمر لم ينتهي بعد .

وخاصة أن حقيبتك كانت في يد هذا الشاب الوقح ، وعثر

على بطاقة هويتك وبالتأكيد قرأ عنوانك فيها . وأيضا رأى

صور أولادك . لم يكونوا بحاجة لتتبعك فهم يعلمون أين

تسكنين . هل فهمت الوضع الآن ؟

كلمات هالة جفت ريقى وأوقفت الدم بعروقي ولم أجد ما

أقوله فاستسلمت للصمت وعقلي يدور ويدور ولا يتوقف عن

التفكير . خاصة أنني تذكرت أمر آخر وهو أنني لمحت خالد

هذا وهو يمسك بهاتفي عندما كانت أمه تحادثني بتأثر عن

شوقها لابنتها ، انشغلت بالتعاطف مع الأم ولم انتبه جيداً لما

يفعله بهاتفي ، ربما أخذ منه أرقام أو ..

نهضت بسرعة وركضت نحو حقيبتني وبحثت فيها عن

الهاتف ولكنني لم أجده !!

نظرت في وجه هالة وأنا أكاد أصرخ قهراً ولكن صوتي

خرج مبحوحاً :

_ لقد أخذوا هاتفي . كل أرقامى عليه ، حتى الفايسبوك

مفتوحاً فيه ، فأنا لا أغلقه ابداً .

_ هل تمسحين رسائل الدردشة بعد انتهاء كل حوار ؟

قلت وأنا أكاد أبكي :

_ لا . كل الرسائل موجودة . سيقرون كل رسائلني مع مريم

_ نعم بالتأكيد سيفعلون .

_ ما العمل يا هالة ؟ أنا وأولادي وزوجي ومريم كلنا في

خطر .

_ هم لا يعلمون أين تعيش مريم ، الرسائل لن تدلهم عليها .

_ ولكن يستطيعون التحدث معها على أنهم أنا ويستدرجونها

ليعرفوا مكانها .

_ لا أظن مريم ستخبرهم اطمئني ، بالتأكد ستشك في من

يحادثها ، لك أسلوب مميز يا ندى لا أظن أحدا منهم

سيستطيع تقليدك . ستكشف مريم خديعتهم وستعرف أن من

يحادثها ليس أنت ، كما لا أظن انها ستخبر أحدا بعنوانها

حتى لك .

_ نعم هذا صحيح ، ولكن ماذا لو هكروا حسابها وعرفوا

رقم هاتفها مثلا ؟

_ ربما لم تكتب رقم الهاتف في الحساب . دعينا لا نستبق

الأحداث ، أمامنا شيئاً واحداً فقط لنفعله الآن .

_ وما هو ؟

_ نتحدث مع مريم أو ريم هذه ونخبرها بكل ما حدث لتأخذ

حذرها ثم نقوم بتغيير كلمة السر الخاصة بحسابك ثم نغلقه

نهائياً .

نظرت لها برعب :

_ ماذا تقولين ؟ هل تطلبين مني أن أخبرها بأنني خنت ثقتها

وذهبت وقابلت أهلها وأنني تسببت في كشفها لهم وتعريضها

للخطر؟! مستحيل طبعاً أن أفعل هذا ، تخيلي نظرتها لي إن

علمت بما فعلته .

_ نعم أخطأتِ . تطفلك وفضولك تسببا في كارثة ، ولكن
لا بد أن تحذريها ، هذا حقها عليكِ وهذا أقل شيء يمكن أن
تفعله لها بعد خطأك بحقها .

على الرغم من أن كلمات هالة كانت قاسية ، لكنها كانت
على حق في كل كلمة . ولم أملك سوى الموافقة .

_ حسنا انتظريني دقيقة واحدة سأذهب لآتي بهاتفني من
الصالون وسنجلس معا للتواصل مع صديقتك وتحذيرها .
ذهبت هالة وجلست أنا متهاكة القلب والروح والجسد على
الفراش ورأسي يكاد ينفجر .

عادت بعد دقيقة تحمل هاتفها وجلست بجواري وهي تمد
يدها بالهاتف وتقول ادخلي إيميل حسابك والرقم السري .
اخدت منها الهاتف وفعلت كما طلبت وفتحت صفحتي .
أرسلت رسالة لريم كتبت فيها كلمتين فقط :

_ أنتِ هنا ؟

وانتظرت مع هالة الرد . مر الوقت بطيئاً متثاقلاً ولم تظهر ريم .

نظرت إلى هالة في حيرة فقالت :

_ لانتظر بالتأكيد ستظهر ، وإن تأخرت أكثر أتركي لها رسالة بكل التفاصيل ولنغلق هذه الصفحة بعدها للأبد .

_ وماذا عن أهل مريم ؟ هل سيتركونني ؟

_ لا أعرف ولكن الخطر لم ينتهي بعد ، ما رأيك في ابلاغ الشرطة ؟

_ ماذا أقول لهم ؟

_ أخبرهم بكل ما حدث ، ولديك الرسائل التي بينك وبين

ريم دليل على كلامك .

_ هذا سيفتح علي أبواب جهنم ، فلا دليل حتى على كلام ريم .
_ لن تهتم الشرطة بمجرد كلمات . تحتاج لأدلة .

_ اختفاء الأب دليل كافي ، كما أنك لم تذكر شيئا عن
_ الخادمة .

_ أي خادمة ؟

_ ألم تقولي أن ريم أو مريم عندما عادت إلى بيتها لم تجد
أهلها ولا الخادمة وهذا جعلها ترتاب في الأمر ؟ اين ذهبت
_ الخادمة ؟

_ قلت لك أنهم قالوا لها أن الخادمة في أجازة لأنها مريضة
_ والحارس تشاجر معه خالد وطرده. ولكنني رأيت حارسا
_ للفيلا عندما كنت فيها ، ربما يكون حارسا جديدا .

_ نعم هذا صحيح . حسنا ما رأيك بأن نتأكد من اختفاء الأب
_ أولا وإن كان حقا مختفيا نقوم بإبلاغ الشرطة ؟

_ولماذا تؤكدين اختفاؤه ؟ ربما أعلنوا وفاته بشكل طبيعي

_كيف وجثته مهشمة كما قلت لي ؟

_هم أغنياء يستطيعون استخراج تصريح دفن دون كشف

على الجثة . طالما لا يوجد بلاغ عن وفاته ، فلن يهتم أحد

بالكشف على الجثة وتشريحها وبيان سبب الوفاة .

_لنقم نحن بهذا البلاغ . ولكن علينا أولاً التأكد من وفاته .

ثم أمسكت بالهاتف وفتحت الباحث وهي تقول :

_لنبحث في جوجل عنه ، ما اسمه ؟

_أخرجت من حقيبتي الورقة التي بها اسم مريم بالكامل

وعنوانها والتي أخذتها من كليتها و أعطيتها لهالة لترى اسم

الأب ولتبدأ في البحث .

ادخلت الاسم وظهرت النتيجة " وفاة رجل الأعمال عادل
عبد التواب بصورة مفاجئة أثر تعرضه لأزمة قلبية في
مسكنه " والتفاصيل كانت غير هامة ، المهم أنه مات بصورة
طبيعية ، ولم تكن جثته مهشمة كما قالت مريم .

_ ما العمل الآن يا ندى ؟

_ بالتأكيد قاموا بتزييف الحقائق ، نحن في بلد لا تسمع ولا
تري سوى صوت المال ولمعان الذهب .

_ وربما مريم لم تكن صادقة معكِ في حادثة موت أبيها .

_ لا . كل ما قالته لي صدقت فيه . اسمها وتفوقها الدراسي

اللذان أوصلاني لبيتها وأمها وأخيها . لو رأيتها يا هالة

لتأكدت أنها بالفعل مجرمين . لم أر أخيها الثاني ولكن لا

اظنه سيختلف عن أخيها المتوحش خالد .

تنهدت هالة واطرقت في صمت وشعرتُ بحيرتها وأنا كنت
أشد منها حيرة وخوف .

ثم رفعت رأسها وقالت :

_ ليس أمامك سوى انتظار الخطوة الثانية منهم هم ، وبناء
عليها سنرى ما الذي سنفعله .

_ ماذا لو خطوتهم القادمة هي قتلي ؟

_ لا أظن أنهم سيقدمون على هذا قبل الوصول إلى مريم .

_ أتمنى إذا ألا يصلوا إليها أبدا .

_ وأنا مثلك أتمنى هذا . للأسف مضطرة للانصراف الآن ،
موعد عملي قد حان .

أمسكت يدها وأنا أرجوها أن تمكث معي تلك الليلة فزوجي

لا زال مسافرا ولن يأتي إلا بعد يومين . فقبلت رجائي ولكن

قالت أنها لن تستطيع أن تتغيب عن العمل لوجود ضغط شغل

عندهم في محل تصفيف الشعر الذي تعمل به ، ولكنها

ستعود بعد انتهاء عملها في الحادية عشرة مساء بعد أن

تهاتف أمها وتخبرها بأنني مريضة وتطلب موافقتها على

المبيت معي .

أوصلتها حتى باب الشقة ، ثم أغلقته وراءها بإحكام .

واتجهت إلى غرفتي .

كنت في حاجة شديدة للاسترخاء والنوم ولو لساعة واحدة .

ولكن تذكرت أولادي ، فعرجت على غرفتهم ورأيتهم الحمد

لله في حالة هدوء وانسجام في اللعب ، فعدت مرة أخرى

إلى غرفتي وتمددت في فراشي وذهبت في نوم عميق فلقد

كنت مرهقة جدا .

كان نومي قلقاً مليء بالأحلام المزعجة ، استيقظت على صوت جلبة وعراك وصراخ ، نهضت فزعة وجريت وأنا اتخبط في الجدران كالثملة ، فلم استعد توازني وكامل وعي بعد ، ووصلت إلى غرفة أولادي وأنا ألهث فوجدتهم كالعادة يتقاتلون ، وبدلاً من أن أحجز بينهم وأفض تلك المعركة ، ارتميت على أقرب فراش لي في غرفتهم وأكملت نومي .

فأي شيء بعد ما رأيته هذا اليوم هو في حيز المقبول والمعتاد ، ولكن يبدو أن ما فعلته أثار انتباه أولادي ، فالكون هدأ فجأة ولم أعد اسمع شيئاً ، ففتحت عين واحدة وتركت الأخرى مغمضة دون أن أرفع رأسي عن الوسادة ، فوجدت ثلاثتهم ينظرون إليّ بقلق ، سألتهم وأنا في حالة نصف الوعي التي أنا عليها :

_ ما بكم ؟ لماذا توقفتم ؟

أحمد : ماما هل أنتِ مريضة ؟

_ لا لست مريضة ولكن مرهقة فقط ولم أكمل نومي بعد ،

فأكملوا عراكم ولا تهتموا بي ، سأستيقظ بعد قليل .

ثم أغمضت عيني ورحت في سبات عميق .

بعد وقت لا أعرفه استيقظت على صوت رنين جرس الباب

،ففتحت عيني بتثاقل فوجدت الظلام حولي دليلا على دخول

الليل . ووجدت باسل ومروان ينامان بجواري وأحمد ينام

على سريره . فقمتم ومددت عليهم الغطاء سريعا وذهبت إلى

الباب لأفتحه . كانت هالة قد عادت من عملها ، استقبلتها

بترحاب وأغلقت الباب وقلت لها :

_ دقائق فقط لأدخل الحمام واتوضأ وأصلي ثم أعد العشاء ،

أعلم أنكِ مرهقة ، وحان دوري لأرعاكِ .

ابتسمت في ود وقالت :

_كيف حالك الآن؟

_الحمد لله بخير حبيبتي ، لا تقلقي

توجهت إلى الحمام وتركتها على راحتها ، فهو بيتها وهي

معتادة عليه .

ونحن نجلس للعشاء قلت لها وأنا أمد لها يدي بالخبز :

_هالة جاءتني فكرة ، لا أعرف هل هي غبية أم لا . ولكن

أنتِ الذي سيقدر هذا باعتبارك الأذكى هنا .

ضحكت هالة وقالت مازحة :

_ لن أجادلك في هذا ، أكملني

_ أنتِ سألتني عن الخادمة ، غيابها بالفعل غريب ، خاصة

أن مريم قالت أنها أعدت الغداء قبل انصرافها هذا بناء على

رواية الأم لمريم . لماذا لا نحاول الوصول إلى الخادمة ربما
تعطينا بعض المعلومات .

_ مثل ماذا ؟

_ لو كانت حقا شعرت بالمرض وطلبت إذنا للعودة لبيتها ،
فهذا ينفي الاتفاق المسبق والتخطيط لقتل الأب أما لو هم من
طلبوا منها الرحيل فالتخطيط حقيقة ولا بد أنهم بالفعل أعدوا
العدة لقتله .

_ هذا بافتراض أن ما قالته مريم حقيقة وأن الرجل لم يمت
بصورة طبيعية .

_ الخادمة أيضا ستؤكد لنا هذا من عدمه ، فلو مريم لم تكن
صادقة فستخبرنا الخادمة كيف مات الأب . لو كانت
حضرت وفاته . على الرغم من أنني على يقين الآن من
صدق مريم بعد أن قابلت ريا وسكينة .

_ وكيف سنصل إلى الخادمة ؟

_ سأسأل مريم عنها ، بالتأكد تعرف عنها معلومات جيدة

توصلنا إليها .

_ وهل ستخبرك مريم بهذه البساطة ؟ لا أظنها سترحب

بالتحريات التي تريدين القيام بها ، فالنتائج قد تكون وخيمة ،

عملية النباش هذه ستخيفها منك وقد تقرر البعد عنك والاختفاء

للأبد .

_ ألم نتفق على أن أحكي لها كل ما حدث بيني وبين أهلها ؟

سأقنعها أنه لا بد من كشف جريمة أسرتها لتعود هي إلى

حياتها وأعيش أنا والغامي في أمان .

_ نعم ربما تستطيعين اقناعها بهذا ، ولكن ردة فعلها عندما

تعلم ستكون قوية جدا ، وربما لا تعطيك الفرصة لقول أي

شيء بعدها وتجدي الحظر في وجهك أو تغلق صفحاتها نهائيا
ويختفي أثرها ، وتبقين أنتِ في وجه المدفع .

تنهدت وقلت بياس وأنا أضع يدي على رأسي :

_حيرتني يا هالة ، فكري أنتِ فلقد عجزت عن التفكير .

وضعت هالة يدها على كتفي ورببت عليه بحنان وقالت :

_بإذن الله سنجد حلا لهذه المشكلة ، لا تقلقي . دعيني أنام

الآن لأنني مرهقة جدا وغدا بإذن الله سنجد معا الحل .

أوصدنا الباب جيدا ، وأمنا كل نوافذ الشقة ، ثم دخلنا إلى

الغرفة حيث رقدت هالة لتنام ، ورقدت أنا بجوارها لأقضي

ليلتي في التفكير . ولم يأتني النوم ثانية إلا في الصباح .

استيقظت على هزة خفيفة من يد هالة وهي تحمل في يدها

الأخرى هاتفها وتقدمه لي وتقول :

_زوجك على الهاتف ويريد أن يكلمك .

قلت بدهشة :

_ على هاتفك أنتِ ؟

فهزت رأسها أي نعم .

فأخذت منها الهاتف وحادثته :

_ السلام عليكم ، أهلا حبيبي كيف حالك ؟

_ ندى أين أنتِ من الأمس ؟ ومن تلك المرأة ؟

_ أي امرأة ؟

_ المرأة التي تركتِ هاتفك عندها .

نظرت إلى هالة أستغيث بها لتساعدني في الرد ، فعقلي لم

يعد يسعفني بشيء . وفتحت الصوت لتسمع هالة المحادثة

_ ماذا قالت لك ؟

_ قالت لي أنك كنت تزورينها ونسيت هاتفك في بيتها ، من

هي هذه المرأة ؟ لا أعرف لك صديقات غير هالة والحمد لله

أن رقمها معي وإلا ما كنت استطعت الوصول إليك .

احترت ماذا أقول له ولكن وجدت هالة تشير إلى نفسها

وتضع أصبعيها السبابتين بجوار بعضهما ، ففهمت أنها

تريدني أن أقول له أن تلك المرأة صديقة لها أو من قريباتها

ففعلت .

_ هذه من معارف هالة ذهبنا إليها في موضوع يخص هالة .

وطبعاً لم يكتفي هو بهذه الإجابة وكأنه أقسم على وضعي في

خانة النرد .

_ وما هو هذا الموضوع ؟

نظرت مرة أخرى إلى هالة لتلهمني بالإجابة ، فرأيته تمسك

بفستانها وتهتز به وكأنها عروسة المولد فلم أتمالك نفسي من

الضحك على حركتها تلك ولكني كتمت ضحكتي سريعا

عندما سمعت زوجي يصرخ في أذني :

_ ندى ، لماذا لا تجيبي ؟

_ آسفة جدا يبدو أن هناك مشكلة في الصوت ، هذه المرأة

تبيع ملابس بالقسط وذهبنا لنشتري بعض الملابس لهالة .

سمعته يتنهد وهو يقول :

_ حسنا ، هل الأولاد بخير ؟

_ نعم بخير اطمئن ، هل المؤتمر يسير على ما يرام ؟

_ نعم ، مضطر للانصراف الآن ، اتصلي بي بعد أن

تستعيدي هاتفك . سلام حبيبي

_ أهتم بنفسك ، أحبك ، سلام

أغلقت الهاتف وأنا اتنفس الصعداء ، جلست هالة على حافة

الفراش ونظرت لي ، فنظرت إليها وتذكرت حركتها وهي

تمسك بفتانها فانفجرت ضاحكة وهذه المرة لم أحاول

كتمانها ، فنظرت لي هالة بغضب مصطنع وهي تقول :

_ أنتِ أعجب امرأة قابلتها في حياتي ، تطاردك عصابة من

القتلة وأنتِ تضحكين هكذا على حركة تافهة .

قلت لها وأنا استرخي وأتمطى كقطة خرجت لتوها من سبات

عميق :

_ المواقف العصبية تُظهر أسخف ما فينا .

كان هذا دورها هي في الضحك وهي تقول :

_ في حالتك أنتِ بالذات أتفق معكِ .

عقدت حاجبي متصنعة الغضب وقلت :

_ جميل أن نتفق

هزت رأسها في مرح وقالت :

_ نعم جميل

ثم أردفت بجدية :

_ انهضي أيتها الكسولة وهيا لنعد الإفطار ونوقظ الأولاد ،

ثم نجلس لنفكر في خطوتنا القادمة .

نهضت بالفعل ومرت ساعتان ما بين الحمام والإفطار

وترتيب غرف النوم ، ثم اقترحت هالة أن نخرج لنجلس في

حديقة قريبة من المنزل ، ليلعب الأولاد ونجلس نحن في

هدوء لنتكلم ، ووجدتها فكرة رائعة ووافقت . خاصة أن هالة

موعد عملها يحين بعد العصر .

كانت الشمس مشرقة والجو عليل كما كنا نكتب في

موضوعات التعبير بالمدرسة ، تركنا الأولاد يلعبون الكرة

وجلسنا نحن على أحد المقاعد الخشبية الطويلة الموجودة في
الحديقة .

هذا الجو الصافي الجميل جعلني أشعر بالسكينة والراحة
ووجود هالة بجانبني كان يشعرني بالأمان وبأنني لست
وحددي في تلك الدوامة . أحضرنا معنا زجاجة مياه وترمسا
للشاي وبسكويت اشتريناه قبل دخولنا للحديقة . وكأننا فعلا
في نزهة ولا توجد عصابة ولا مريم ولا هاتفني المسروق
ولا تهديد بالقتل ولا أي شيء .

عجيب هو هذا الإنسان ، فإرادته يستطيع أن يحمل هموم
الدنيا كلها فوق رأسه ، وإرادته أيضا يستطيع أن يرمي هذا
العالم بكل مشاكله خلف ظهره . مثلما فعلنا نحن في تلك
اللحظات القليلة التي سبقت عودتنا إلى الحديث عن مريم
وأسرتها .

بعد دقائق من التأمل والهدوء والصمت ونحن نرقب الأولاد

وهم يلعبون قالت هالة :

_ لنبدأ الآن أول خطوة

ثم مدت لي يدها بهاتفها وهي تقول :

_ خذي . تواصلتي مع مريم واحكي لها ما حدث كما اتفقنا

وحاولي اقناعها بمساعدتنا في كشف جريمة أسرتها .

نظرت إلى هالة بدهشة ، فلم أتوقع أن تكون قد وافقت على

ما اقترحته عليها من قبل وأن يكون رأي صحيح .

_ وماذا لو فعلت مثلما قلت ولم تمهني حتى أنني كلامي

وقامت بحظري أو غلق صفحاتها ؟

_ هذه مغامرة من بدايتها ، وكل خطوة فيها هي مغامرة

أيضا ، ليس أمامنا سوى أن نغامر ، أنا فكرت كثيرا في

الأمر ، ولا أرى حل سوى بمساعدة مريم ، هي الشاهدة

الوحيدة على تلك الجريمة ، وفي نفس الوقت هي طوق
نجاتك من خطر أسرتها ، كما أنه يجب أن تنبهها لتأخذ
حذرها ، فهم الآن يعرفون صفحتها على الفايسبوك ،
وبالتأكيد لن يتركوا هذا الخيط دون استخدامه . خاصة أن
مريم موجودة في المنصورة أيضا ولم ترحل عنها .
قلت بدهشة :

_وكيف عرفت أنها لازالت في المنصورة ؟

_من قصة هروبها التي روتها لك . قالت أنها هربت من
سيارة أمها وركضت حتى وقعت في الطريق فأخذتها تلك
المرأة عندها . لا أظن أنها ركضت حتى وصلت إلى
الإسكندرية مثلا ، بالتأكيد سقطت بعد شارعين أو ثلاثة من
المشفى حيث سقطت أمام منزل تلك المرأة . وهذه المعلومة

كما توصلنا نحن إليها بالتأكيد توصلت إليها أسرتها ، لأن هاتك معهم و رسائلكم المتبادلة كلها معهم أيضا .

هزرت رأسي موافقة على كل ما قالته هالة . أخذت منها الهاتف وبدأت في فتح الصفحة لأتحدث مع مريم . وجدت منها رسالة ردا على رسالتي السابقة التي سألتها فيها " هل أنت هنا ؟ " وكان ردها " نعم عزيزتي أنا هنا "

_ اشتقت لكِ عزيزتي ، اتمنى أن تكوني بخير .

هكذا كتبت وتمنيت أن تكون موجودة وقلبي يرتجف من هول ما سأقوله لها .

_ وأنا أيضا يا ندى اشتقت لكِ كثيرا ، الحمد لله أنا بخير .

_ أريد أن أخبرك شيئا ، ما أقوله ربما سيكون صادما لكِ ،

ولكن أستحلفك بالله أن تسمعيني إلى النهاية .

_ أفلقتني يا ندى ، ما الأمر ؟!

نظرت إلى هالة التي كانت تتابع الحوار وتقرأ كل ما يكتب
على شاشة الهاتف ، فنظرت لي مشجعة وقالت " أكتبي يا
ندى لها كل شيء ، هذا حقها وهو مخرجنا الوحيد "

ابتلعت ريقي واستجمعت شجاعتي ثم بدأت أكتب .

كتبت لها كل ما حدث باختصار منذ وضعت قدمي في
المنصورة ، وهي لم تعلق أو تقاطعني حتى انتهيت من
قصتي ، وجاء الجزء الثاني والذي يختص بأن تساعدنا في
إثبات جريمة أسرتها وأن هذا هو الحل الوحيد لها ولي ليعود
كلا منا إلى حياته الطبيعية . بعد أن أنهيت هذا الجزء ،
ختمته بهذه الكلمات :

_ أعلم أنني أخطأت ، وأن ما فعلته جريمة بحقك ، وأنني
تسببت في مشكلة لك ولأسرتي ، وعرضتكم جميعا للخطر ،
أعترف بغبائي وفضولي القاتل وبأنني لست صديقة جيدة

على الإطلاق ، ولكن أرجوكِ يا مريم ساعديني لنوقف شرهم
ونكشف جريمتهم لتعودي لحياتك وتعود لي حياتي ويأخذ
المجرمون عقابهم .

انهيت كلامي وصمت وانتظرت ردها ، كان يظهر لي
رؤيتها لكل رسائلي وهذا كان يطمئنني نوعا ما .

تأخر ردها ، فنظرت إلى هالة بقلق ، فقالت أكتبي لها رسالة
أخيرة .

فكتبت :

_ مريم ردي عليّ أرجوكِ .

ولكن تلك الرسالة ظلت معلقة في الهواء ولم يتم فتحها ولم
تقرأها مريم ، انتظرنا وانتظرنا ولكن لا مجيب ، ولا حتى
ظهرت عبارة " تم رؤيتها " التي تُكتب عندما يرى الطرف
الأخر الرسالة .

نظرت لهالة في حيرة وعيناى قد اغرورقت بالدموع ،
فصمت مريم يعني أنني خسرتها إلى الأبد ، وأن تهديد أهلها
ستظل ظلالة تخيم على حياتي . أخذتني هالة في حضنها
وربتت على ظهري وتتهدت ولم تتكلم ...

عدنا إلى البيت بعد أذان الظهر ، غيرنا ملابسنا وصلينا
ودخلت المطبخ لأجهز الغداء وصممت هالة على مساعدتي ،
والأولاد كانوا أمام التلفاز يشاهدون أحد رسومهم المتحركة
المفضلة . وهذا منحنا قدراً من الهدوء كنا بحاجة ماسة إليه ،
وفجأة قالت هالة :

_ مريم ستتحدث معك بعد أن تستعيد نفسها من وقع المفاجأة

_ وكيف عرفتِ ؟

_ لأنك في خطر ، لن تقبل أن تكوني في خطر من قبل

أسرتها ، من خلال حديثك عنها ، فهمت شخصيتها ، وهذا

النوع لا يتخلى عن أصدقاءه

قلت بيأس :

_ لا تنسي أنني خنت ثقتها وسعيت من ورائها لأنبش في

حياتها ، لن تغفر لي هذا أبدا .

_ ربما لن تغفر ، ولكنها لن تتركك وحدك في تلك الأزمة .

اتركي ما في يدك ، سأكمل أنا تحضير الغداء وأذهبي

وحاولي مرة أخرى معها .

غسلت يدي وخرجت من المطبخ ، فلقد تركت التفكير لهالة

وعلي فقط التنفيذ ، فهذا أمن بعد كل ما فعلته وتسببت به .

فتحت هاتف هالة لأرى هل ردت مريم على رسائلي أم لا .

ولم أتمالك نفسي من الفرحة عندما وجدت منها بالفعل رسالة

وبدأت في قراءتها . " ندى ما فعلتية بشع ولا أجد الكلمات
المناسبة للرد عليه ، أشعر بخوفك ولكن لا أعرف كيف
أساعدك ، أعتذر لك بشدة ، لا أملك أن أفعل شيئاً ، أنا
أضعف من أن أفعل شيء ، حياتي تدمرت وقتلت مريم لأنها
هي من تربطني بتلك الحياة الكريهة المدمرة ، لا أعرف
بماذا أنصحك ، لكن بالتأكيد لن أمنعك من الذهاب إلى
الشرطة إن كان هذا فيه حماية لك ولأسرتك "

هذه هي رسالتها التي قرأتها وأنا أبكي ، لم أشعر بنفسي
ودموعي تسيل على وجنتي في حزن وألم ، لم أفكر في
نفسي بقدر ما كنت أفكر في مريم وما فعلته بها ، وكيف
خسرتها بغبائي .

سرت بخطوات متناقلة إلى المطبخ حيث هالة . نظرت لي
هالة ورأت دموعي ، فتركت ما في يدها واقتربت مني في

قلق وهي تسألني عما حدث ، لم أقو على الكلام فمددت لها
يدي بالهاتف لتقرأ هي رسالة مريم . وقرأتها بالفعل وتنهدت
ثم قالت :

_ أصبحنا وحدنا في هذا .

_ أنا سبب هذا كله .

عانقتني هالة فبكيت بحرقة ، وتركتني أبكي حتى هدأت نوبة
بكائي .

بعد الغداء قالت هالة أنه يجب عليها أن تعود إلى بيتها لتبذل
ملابسها قبل أن تذهب إلى عملها ، ودعتها حتى الباب
ووعدتني بأنها ستعود ليلاً للمبيت معي ثانية . أغلقت الباب
ورائها بإحكام وذهبت لأقوم ببعض الأعمال المنزلية وذهني
شارد جدا . انتهيت فدخلت حجرتي وبدلت ملابسني ورقدت

على الفراش ، كانت حالة الحزن التي تملأ قلبي تصيب
جسدي بحالة خمول وتعب وبدأت أشعر أنني على حافة
الانهيار ، ودعوت الله أن يخفف عني وأن يخرجني أنا
وأسرتي ومريم من تلك الأزمة على خير . ظلت على تلك
الحالة حتى غفوت ، هربت من حزني إلى النوم ..

لا أعرف المدة التي نمتها ولكنني استيقظت على صوت
رنين جرس الباب ، وكان الظلام يحيط بي من كل جانب .
أشعلت النور وتوجهت ببطء نحو الباب فلم أستفق تماما بعد
ولكن قبل أن أصل إليه وجدت ابني أحمد يهرع نحوه
ويفتحه.

كان بالباب شابين ، ميزت منهما خالد شقيق مريم . كدت أن
أصرخ إلا أنه أشار لي بإصبعه على فمه كأمر لي بأن
أصمت . فصمت بالفعل فابني أحمد كان يقف بجوارهما .

دخلا وأغلقا الباب وراءهما وسار خالد هذا نحوي ووقف
الآخر بجوار إبنني ووضع يده على رأسه يتودد إليه ويسأله
عن اسمه .

وقف خالد أمامي وهو يقول بصوت خافت :

_ تأكدنا من أن زوجك ليس هنا . خدعتك الصغيرة لم تنطلي
علينا كثيرا . علينا الآن أن نكمل حوارنا السابق .

قلت له بخوف وعيني تنتقل بينه وبين ابني وهذا الشخص
الذي يحادثه ويقف بجواره والذي حررت أنه علاء شقيق
مريم الثاني :

_ قلت لك ليس لدي أي علم بمكانها .

_ نعم نعلم هذا

_ وكيف علمت ؟

رفع هاتفني أمام وجهي وهو يقول :

_ علمنا من هاتفك والرسائل التي بينك وبينها ، و علمنا من

الهاتف أيضا أن زوجك غائب لأنه اتصل بك من رقم دولي

وأمي حادثته على أنها صديقتك وأنتِ نسيتِ هاتفك عندها .

ثم مد لي يده بالهاتف وهو يقول . تفضلي فهي أخبرته أنها

ستعيده إليك . و علينا أن نوفي بوعدنا أليس كذلك ؟

وابتسم ابتسامة سمجة خبيثة جدا . كم أكرهه ..

أخذت منه الهاتف فقال محذرا :

_ لا تحاولي أن تتصلي بأحد فابنك معنا لا تنسي هذا .

ابتلعت ريقي بصعوبة وقلبي لم يتوقف عن الخفقان بقوة منذ

دخلا البيت ولكنني تماسكت من أجل ابني الذي يقف بجوار

هذا العلاء والذي يلهيه بالحديث عما يدور بيني وبين خالد .

_ والآن لنبدأ حوارنا .

_ ليس لديّ جديد لأقوله . وأنت بنفسك قرأت الرسائل كما
قلت .

_ نعم ولكن اتحدث عما ستفعلينه مستقبلا ، أنتِ وسيلتنا
الوحيدة للوصول إلى مريم ، وهي ذكية جدا . لهذا يجب أن
تساعدينا أنتِ في استدراجها والوصول إليها .

_ ماذا ؟ مستحيل طبعا أن أفعل .

_ المستحيل هو ألا تفعلي . أتمنى أن تقيمي الموقف بعقلانية
وَألا تتهوري كما فعلتِ سابقا . من يقرر دخول البحر وهو لا
يجيد السباحة فعليه توقع الغرق .

_ هل تريد مني أن أقدم لكم مريم كبش فداء لأحمي نفسي ؟
أنتِ واهم . مستحيل أن أخون ثقتها .

نظر لي ساخرا وهو يقول :

_ أظن سبق وفعلتِ هذا . خنتِ ثقتها عندما نبشتِ في حياتها

ولم تكتفي بالإنصات لها . دفعك فضولك إلينا أليس كذلك ؟

تتهدت بحرقه فكلامه صحيح ، بل انني خنت ثقتها مرة

أخرى عندما رويت لهالة حكايتها . وربما لو زوجي هنا

لكنت رويت له أيضا . لم أكن أعلم أنني بهذا السوء حتى

مررت بهذا النفق المظلم .

لم يدعني أكمل أفكاري وأمسك بذراعي بقوة وهو يقول

بقسوة :

_ اسمعي لا وقت لدينا لأي مماطلة ، عليك بمساعدتنا في

الوصول إليها إن أردت أن تكوني وأولادك في أمان .

ذراعي ألمني بشدة وفوجئت بابني يجري نحوي وهو يصرخ

في خالد ويقول له " أترك أمي " ويبدأ في ركله ولكمه فيترك

خالد ذراعي ويمسك بأحمد . صرخت وحاولت تخليص أحمد

من قبضته فدفعنا نحن الإثنين أرضاً فجري نحوه أخيه

وأمسكه وقال له بغضب :

_ أهدأ يا خالد ، لا تفسد الأمر هذه المرة أيضاً . تهورك

دائماً يضيعنا .

نظر له خالد بغضب مماثل وقال :

_ ألا ترى تسويها ومماطلتها ؟ أمنا تنتظر النتيجة على نار

والوقت يركض ركضاً . يجب أن تساعدنا هذه المرأة قبل أن

نخسر كل شيء .

_ اهدأ فقط ، سأصرف أنا .

ثم توجه علاء إلي بالحديث وأنا ما زلت على الأرض

أحتضن ابني في خوف وهو يبكي من قوة الدفعة وارتطامه

بالأرض ، ولكن الحمد لله لم يتسبب له ذلك الارتطام في أي

كسر .

__ من فضلك يا مدام ندى يجب أن تساعدنا ، ما قالت له لك
مريم غير صحيح ، هي تعاني من اضطراب نفسي وتتوهم
أشياء غير حقيقية . لا بد أن نعيدها للمشفى لتكمل علاجها .
لو تحبينها حقا ساعدنا أرجوك .

انهى كلامه وأنا أنظر إليه غير مصدقة له فما رأيته منهم
يدل على أنهم مجرمين . ويبدو أن علاء هذا مثل أمه يلجأ إلا
استراتيجية الرجاء والمسكنة عندما لا تجدي استراتيجية
العنف والتهديد التي يتبعها خالد ، يتعاملون معي بأسلوب
الجزرة والعصا . إن لم تفلح العصا فيلجؤون للجزرة .

خالد هو العصا وعلاء وأمهم الجزرة . تشكيل عصابي خطير
وعليّ مواجهته وحدي . وكان كل همي في تلك اللحظة هي
حماية أولادي ، لهذا قلت لهم بعد أن تظاهرت بتصديق

الجزرة :

_ حسنا سأساعدكم ، ليس من أجلكم ولا خوفا منكم ، بل من أجل مريم فقط .

ابتسم علاء في ارتياح ونظر لي خالد في شك ولكن لم يقل أحدهما شيئاً ، اخرج علاء هاتفه من جيبه واتصل بأمه يطمئنها ويخبرها بموافقتي على مساعدتهم ويطلب منها الصعود وفهمت من كلامهم أنها تجلس في السيارة وكانت تنتظر استدعائهما لها . مد لي علاء يده ليساعدني على النهوض وهو يعتذر ، ولكنني تجاهلت يده الممدودة وتوكلت على يدي ونهضت أنا وابني ثم قلت لهم بهدوء أنني يجب أن أذهب به إلى فراشه لينام . فسمح لي بذلك بعد تحذيري طبعاً من أي تصرف طائش .

أخذت ابني واتجهت به إلى غرفته ، حمدت الله لأن باسل ومروان قد خلدا للنوم ولم يسمعا شيئاً مما حدث ، فعدلت

الغطاء عليهما ، وعندما رقد أحمد في فراشه أسدلت عليه
الغطاء هو الآخر وجلست بجانبه لأحادثه ، لأنه خائف مما
حدث وبالتأكيد يحتاج تفسيراً لاقتحام هذين للبيت ثم امسك
خالد لذراعي ودفعنا على الأرض .

قلت لأحمد وأنا أمسح على شعره بحب :

_ لا تخف حبيبي ، سينصرفان بعد قليل ، يبحثان عن
شقيقتكما وأنا أعرف طريقها وسأدلهما عليها وينتهي

الموضوع

_ ولماذا هي مختفية ؟

_ حدث خلاف بينهم فتشاجرت معهما وتركت البيت . هيا نم
حبيبي لا تقلق نحن بخير .

وعانقته وقبلته ولم اتركه إلا بعد أن نام . خرجت من الغرفة
بهدوء فوجدت خالد هذا يقف بجوار الباب ويبدو أنه كان

يتنصت علينا ، نظرت له في ازدياء وجلست على الأريكة
وحينها لمحت الأم تجلس على المقعد الذي بجوار الباب
وتضع جهاز لاب توب على رجليها . نهضت الأم وهي
تحمله واقتربت مني وألقت على التحية ثم جلست بجواري .
لم أعرها التفاتا ، كنت في حالة غريبة من الضيق والخوف
والقلق . كان الأمر أشبه بكابوس أريد الاستيقاظ منه ولا
استطيع . قالت المرأة بهدوء :

_ لا نريد تعطيلك عزيزتي ، كلما عجلنا بالأمر كلما عاد كل
منا لحياته الطبيعية .

تقدم ابنها علاء وأخذ منها جهاز اللاب توب ووضعها على
المنضدة أمامي وفتحه وقال لي :

_ تفضلي يا ندى ابدئي في الكتابة لمريم . سنخبرك ماذا
تقولين لها .

كان الأمر أشبه بإعطائي بندقية ويطالبونني بالضغط عليها
لقتل صديقتي ، وحياتي مقابل حياتها ، حيرة وحزن وخوف
ونار وحرب هذا كل ما شعرت به في هذا الوقت .

الفصل الرابع

انحنيت للأمام باتجاه اللاب توب وبدأت في الضغط على
أزراره وظهرت خانة الرسائل فكتبت :

_ أنتِ هنا ؟

تمنيت ألا تكون موجودة ، تمنيت ألا ترد ، ولكن خاب أمني
وجاءني ردها سريعا .

_ نعم هنا ، كيف حالك وحال أولادك ؟

_ بخير كلنا والحمد لله .

كانت الأم وولديها يتابعون الحوار معي ويقرأون كل ما
يُكتب ، المرأة تجلس بجواري والشابيين يقفان وراء الأريكة
التي نجلس عليها . وسمعت خالد يقول لي :

__ دعك من هذه المقدمات ، اكتبي لها أنكِ تودين مقابلتها .

التفت له بغیظ وقلت :

__ بالتأكید سترفض .

__ توسلي إليها ، قولي لها بأنها مسألة حياة أو موت .

وقبل أن أوجه له إهانة على غبائه ، سارعت الأم بإسكاته

وقالت :

__ مهلا يا خالد ، ندى محقة ، لن تقبل مريم أن تقابلها بهذه

الكلمات الغريبة ، لا بد من شيء مقنع أكثر .

__ مثل ماذا ؟

قالت بهدوء :

_ مثل هذا .

وسحبت اللاب توب نحوها وكتبت " مريم أنا الآن محتجزة
في بيتي بواسطة أسرتك ، يريدون أن يتحدثوا معك فقط ،
وإلا سيقتلونني أنا وأولادي ، أرجوك تحدثي معهم ، لا ذنب
لي في ما يحدث بينكم "

لم أكن أتوقع أن تكون هذه المرأة بتلك الجرأة لتكتب هذا .
ماذا لو اتصلت مريم بالشرطة وأرثهم تلك الرسالة ؟ وماذا
لو لم تهتم من الأساس بالرد عليها أو الاستجابة لهم ، لا أظن
أنها ستظهر نفسها لتحميننا أنا وأولادي ، أخبرتني سابقا أنها
لا تستطيع أن تفعل شيئا ، قلت لهم هذا كله ، فابتسمت المرأة
بحنان غريب وقالت :

_ هذه ابنتي وأعرف كيف تفكر وأعلم أنها لن ترضى بأن
يؤذيك أحد بسببها .

شعرت في تلك اللحظة بأن هذه المرأة إما مجنونة كلية أو
أنا التي لا تفهم عقلية المجرمين . كيف تطل تلك النظرة
الحانية من عينيها وهي تستدرج ابنتها لتقتلها !! هذا عجيب
جدا !

مرت الثواني ثقيلة جدا حتى جاء رد مريم أخيرا :

_ هل يهددونك بالقتل حقا يا ندى ؟ وهل أمي معهم ؟

نظرت إلى الأم وانتظرت منها أن تكتب شيئا ، ولكنها قالت :

_ اكتبي أنتِ وأشرحي لها كل شيء . أقصر الطرق بين

نقطتين هي خط مستقيم ونحن تعبنا من الطرق الطويلة

المنحنية والمتعرجة .

ابتلعت ريتي بصعوبة ، كيف سأكتب لها أنني أغبي امرأة
في الكون وأنني خنت ثقتها وأنني وضعتها ووضعت نفسي
وأولادي في موقف حرج وخطير كهذا !!

_ نعم يا مريم ، والدتك وشقيقك هنا ويهددونني أنا
وأولادي ، والدتك هي التي كتبت الرسالة الأولى ،
أرجوك يا مريم لا تأتي وأبلغني الشرطة .

كتبت هذا وقبل أن تتحرك يد المرأة لمنعي ضغطت زر
الإرسال . وانفجر الموقف فجأة ، كأنني اطلقت فأرا في
وسط مجموعة من الدجاج . أخذوا في الصياح في وجهي
وشتمني وهذا الخالد الحيوان هجم عليّ أراد ضربي ولكن
أخيه أمسكه في آخر لحظة قبل أن تصل قبضة يده إلى
وجهي . والمرأة أيضا أصبحت غاية في العصبية وnectتني
بالغبية . امتلأ قلبي بالخوف ولكنني كنت سعيدة لأنني فعلت

شيئاً صحيحاً لأول مرة منذ بدأت هذه المأساة . بعد أن
أفرغوا شحنة غضبهم عليّ أشارت أمهم على شاشة اللاب
توب فنظرنا كلنا فوجدنا تلك الرسالة :

_ أكتبي عنوان بيتك يا ندى ، سأتي إليكم

نظرت إليهم بتحدي وقلت أنني لن أكتبه .

فرمقتني الأم باستخفاف وكتبت هي عنوان بيتي . مددت يدي
إلى الأزرار أريد أن أكتب لمريم ألا تأتي وأرجوها ألا تفعل
، ولكن فوجئت بأخيها خالد يجذبني إلى الخلف والأم تسحب
اللاب توب وتغلقه وهي تقول :

_ لا تحاولي اللعب معنا يا ندى ولا تجازفي بحياتك وحياة
أولادك .

قلت بصوت حائق وأنا أحاول التخلص من قبضة خالد
الحيوان :

_ أنتم شياطين ، وجودكم على الأرض تلويثا لها ، لو أملك
لقتلتكم جميعا .

عقدت الأم يديها على صدرها بعد أن وضعت اللاب توب
على الأريكة :

_ أهذه الدرجة تكرهيننا ؟ هل تكرهيننا لأننا نريد إنقاذ ابنتي
من حياة الضياع التي تعيشها ؟ تكرهيننا لأننا نريد أن
نعالجها وأن نعيدها إلى حضننا ؟ تكرهيننا لأنك تستطيعين
مساعدتنا ولكنك تتحامين وتتعاملين بطفولية وغباء ؟
صرخت في وجهها بعد أن تركني خالد :

_ تباً لكم ، تكذبون كثيرا حتى صدقتم انفسكم . وجود مريم
خطر عليكم لأنها تعرف بجريمتكم . هذا هو فقط دافعكم
الوحيد للبحث عنها . تريدون قتلها كما قتلتم أبيها من قبل . لا

تمارسوا معي دور الضحية المكلومة . ما أنتم إلا وحوش
بقلوب من حجر .

كان خالد سيقول شيئاً ، ولكن أمه أشارت له بيدها أن يصمت
فأغلق فمه وعاد خطوة للوراء .

تدهشني قدرتها على اسكاتهما وتحريكهما بمجرد اشارة من
يدها أو كلمة من فمها . امرأة حديدية ، يليق بها أن تكون
قاتلة زوجها ومخططة لقتل أبنتها وربما قتلي أنا أيضا . لا
أظنهم سيقون على حياتي بعد قتلهم لمريم .

سرت رعشة في جسدي وأنا أتخيلهم وهم ينقضون على
مريم ليقتلواها .. كيف سأتحمل كوني السبب في عثورهم
عليها ووقوعها بين يديهم !

يا الله ألا يوجد مخرج من هذا الجحيم وتلك الليلة الرهيبة ؟

وفجأة رن جرس الباب ، ازداد ارتجاف قلبي لأنني توقعت أن
تكون مريم هي من تقف بالباب ولكن تذكرت أن مريم في
المنصورة وأمامها ثلاث ساعات على الأقل لتصل إلى هنا .
سمعت صوت علاء وهو يقول بعد أن نظر من العين
السحرية :

_ إنها فتاة ، ربما تكون صديقتك أو جارتك . افتحى لها ولا
احتاج إلا تذكيرك بأن أولادك ينامون على بعد خطوتين منّا .
اتجهت إلى الباب وفتحته ، كانت هالة تقف على الباب
مبتسمة كعادتها :

_ جنتك كما وعدتك ، أخذت إذنا من العمل لآتي إليك مبكرا
ولا أتركك وحدك .

أجبرت نفسي على ابتسامة فارغة بلا معنى ولسان حالي
يقول :

"ليتك لم تأتي ، ليتك تخليتي عني هذا اليوم بالذات ، ليتك لم

تكوني صديقة على هذه الدرجة من الإخلاص والمؤازرة "

كرهت أن أقمها في ما أنا فيه من خطر ومن ضغط

وانتظار للمجهول ، لهذا لم اتحنى جانبا لأسمح لها بالدخول ،

نظرت لي في حيرة وهي تراني أقف أمامها كحائط صد

وعيني مليئة بحيرة وحزن وابتسامتي البلهاء تبدو كابتسامة

المهرج الباكي . كانت هي تنتظر مني تفسيراً ، وأنا أنظر

بعين رأسي إلى الكلمات وهي تقفز في خوف مبتعدة عن

لساني ولا تترك له سوى الجفاف والرعشة .

كنت كمن يدخل في غيبوبة بالتدريج ، الرؤية غائمة

والتركيز غائب والأعصاب تتخاذل ولا قدرة على التحكم في

أي شيء .

_ ما بك ندى ؟

_ لا شيء

_ بل هناك شيء

_ صدقيني لا شيء ، أنا بخير ، عودي لبيتك عزيزتي

وسأصل بكِ غدا .

نظرت لي في حيرة . هي تعرفني جيدا ربما أكثر من نفسي

. لهذا وبحركة مباغته دفعتني . وفي ثانية واحدة أصبحت

داخل الشقة في مواجهة عصابة مريم ، أقصد أسرة مريم .

تمتاز هالة عني بما يسمونه " الثبات الانفعالي " ولا يظهر

على وجهها مهرجان الألوان والتعابير المتفاجئة والمصدومة

والخائفة التي تظهر على ملامحي عندما أعرض لموقف لم

أكن أتوقعه . رأيتها تتجول بعينيها بين ريا وولديها بهدوء

وكانها كانت تتوقع وجودهم ، وجعلت المفاجأة من نصيبهم

هم ، وهذا بدى على ملامحهم وحركتهم بوضوح . بالتأكيد

استنتجت هالة من هؤلاء ، كما أنها كانت تتوقع أنهم لن يتركوني في حالي ، لهذا عندما لم اسمح لها بالدخول فهمت سريعا أنهم قد وصلوا إلي بيتي وأنهم معي بالداخل ، ولكن هذه الغيبة لو كانت بالفعل استنتجت هذا فلماذا لم تذهب إلى الشرطة وتأتي بهم وتنقذني !! التفسير الوحيد هو أنه لا أحد كامل وأن عشرتها الطويلة لي أثرت على مستوى ذكائها . أنا وباء لابد أن يتجنبه الجميع ، أدركت هذا بعد أن تسببت في الايقاع بمريم وتعريض أولادي وهالة للخطر .

بكل هدوء تعجبت له أنا شخصيا وجدت هالة تقول :

_ أهلا بكم . كنت أعلم أنكم ستزوروننا

قالت ريا بتوجس (أصبح هذا الاسم لصيقا بها في رأسي) :

_ ومن أنتِ يا آنسة ؟ وكيف علمتِ بزيارتنا ؟

_أنا هالة صديقة ندى . روت لي كل شيء عنكم وتوقعت

أنكم لن تفوتوا هذه الليلة دون زيارة خاطفة .

نظروا إلى بعضهم في قلق ، اسعدني هذا كثيرا

فهي تعلم كيف تتلاعب بهم وتملك أعصابها أمام المخاطر .

نظر خالد إليّ بغیظ وهو يقول :

_يبدو أنك مذياع لا يتوقف عن البث .

كدت أن أرد على اهانتته ولكن امسكت هالة بيدي وضغطت

عليها لأصمت ثم قالت :

_أظن أن زيارتكم قد طالت والوقت قد تأخر والأفضل أن

تنصرفوا بهدوء .

كانت تتكلم بمنتهى الرصانة والثقة مما أربكهم وجعلهم

يتبادلون النظرات وكأنهم يتساءلون عن كيفية التصرف أمام

هذا الثبات واللهجة الواثقة .

وأخيرا قالت الأم بهدوء مماثل :

_وما الذي سيجبرنا على إنهاء زيارتنا دون رغبة منا ؟

نعم ما الذي يجبرهم على هذا ! أنا أيضا سألت نفسي هذا

السؤال . فجاءت إجابة هالة :

_الذي يجبركم هو أن وجودكم هنا خطرا عليكم بعد أن

أبلغت الشرطة بكل شيء . طبعا يحتاجون لدليل ليتأكدوا من

كلامي لهذا لم يتحركوا . لكن أي ضرر يصيب أحد منّا

سيؤكد بلاغي وستكونون المتهمون الأولون في هذا وسيتم

فتح دفاتركم القديمة وستظهر الخفايا . ولا أظنكم ترغبون في

سحب طرف العقدة لتنفك الألبان كلها وتصبحون عرايا بلا

غطاء أو حصن يأويكم .

كدت أصفق لذكائها وأعانقها فرحة . يا لها من فتاة رائعة !

جلست الأم الحيزبون بهدوء وهي تشبك أصابعها أمام وجهها

وتنظر متفحصة لهالة وكأنها تفكر في كلامها وتقيمها . ثم

أراحت يدها على طرفي المقعد وهي تأمر ولديها بالجلوس

وتومئ لي ولهالة بأن نأخذ حذوهم . ثم تنهدت وقالت

_ لن نرحل قبل مجيء مريم . كل ما قلته يا أنسة لا يخيفنا .

ولا أظن أنكما ستتهوران لدرجة أن يُصاب أحد منا بأذى .

كل ما نطلبه منكما هو التحلي بالهدوء والصبر حتى تأتي

مريم ونأخذها وننصرف .

نظرت لي هالة مستفسرة وفهمت أنها تريد أن تسألني عن

مجيء مريم ، فأومأت لها بعلامة التأكيد على كلام الحيزبون

وبأن مريم في طريقها إلى هنا ، وقلت بكلمات مقتضبة لتفهم

هالة كل شيء :

جعلوني أتحدث مع مريم علي الفايستوك وأروي لها كل

شيء وأرجوها لتأتي حتى لا يقتلونني أنا وأولادي .

نظرت هالة إليهم بغضب وقالت وهي تضغط على كل حرف
من كلماتها :

_ هددوكِ بالقتل ؟

قالت الحيزبون ريا :

_ لا لم يحدث ، تحدثنا فقط عن ضرورة تنفيذ ما نأمرها به
حتى لا يتضرر أحد .

عقدت هالة حاجبيها بغضب وقالت :

_ طبعا تريدون عودة مريم لأن غيابها يثير الريبة فيكم
ويضع علامات استفهام كثيرة حولكم ، موت الأب مر بسلام
ولكن اختفاء مريم يثير الشبهات حولكم ويجعلكم معرضون
للخطر في أي لحظة بالإضافة إلى أنها وريثة شرعية لن
تستطيعوا توزيع الثروة بدونها .

نظر خالد بغضب إلى هالة ولكن علاء أشار له ليهدأ وأهم
ظلت تنظر لهالة بتركيز شديد والجو أصبح متوترا جدا ،
ولكن من العجيب أنه لم يرد أحد على هالة أو يحاول
مجادلتها في ما قالته ، وكأنهم شعروا أن الكلام معها خطر
والصمت أفضل لهم ، أو لأنهم يدبرون لشيء لم نعلمه بعد ..
وفي وسط هذا البحر المضطرب انطلق هاتفني في الرنين
ليعلن انهاء تلك اللحظات الساخنة .

كان زوجي هو المتصل ، ولكن أشارت لي المرأة بألا أجيبه.
فأنصت لأمرها ولم أعترض فلم أكن في مزاج يسمح
بالكلام معه وسيبدو القلق على صوتي ولا أريد أن أقلقه .
وهو سيظن أنني لم أجبه لأنني مستغرقة الآن في النوم أو أن
المرأة لم تعيد لي الهاتف بعد . مرت الدقائق بطيئة لم يتكلم
فيها أحد ، كجمهور مسرح ينتظر رفع الستار وظهور البطلة
ليبدأ العرض .

وجود هالة ساعدني نفسيا كثيرا ، جعلني أكثر تماسكا وهدوء
كما أن ما قالته عن الشرطة وبلاغها حتى وإن لم يصدقوه
بشكل كامل هو على الأقل فزاعة تجعلهم يفكرون ألف مرة
قبل أن يمدوا لنا أيديهم بالأذى . فاحتمالية معرفة الشرطة
بالأمر وصدق هالة تتساوى مع احتمالية كذبها في هذا الشأن
، لهذا فنسبة انقاذنا من هذا الموقف بعد أن كانت منعدمة
ارتفعت إلى النصف وهذا في حد ذاته جيد .

مر الوقت ببطء ونحن نتبادل نظرات التحدي والتوتر بايدي
على وجوهنا وكأننا جيشان متصارعان يقفان على أهبة
الاستعداد وينتظران فقط سماع طبول الحرب وطلقة بدء
المعركة . وفجأة أدركت شيئا لم أكن قد انتبهت إليه ، وهو
أنني أجلس معهم بملابس البيت ودون حجاب ، هذا الأمر
ضايقني كثيرا . كيف لم انتبه أنني أبدو لهم بهذه الهيئة !
دخولهم المفاجئ أربكني وجعلني لا أنتبه . فقامت بشكل

مفاجئاً لأبدل ملابسني فرأيت خالد وعلاء ينهضان وسمعت

صوت المرأة الحديدية وهي تسألني :

_ إلى أين أنتِ ذاهبة ؟

قلت لها بحنق :

_ سأبدل ملابسني وأرتدي حجابي . لم ألاحظ أنني بهذه الهيئة

إلا الآن . أم أن لديكِ في قوانينك الإجرامية ما يمنع هذا ؟

_ لا ولكن لن نسمح بدخولك غرفتك بمفردك .

اشتد حنقي وغضبي وقلت :

_ وأنا لا أنتظر إذناً منك ولن أسمح لأحد منكم بالدخول

معي.

_ بالتأكيد لن ترضي بأحد من أبنائي ولكن ما الضرر إن

صحبتك أنا ؟

ثم قامت وهي تقول بهدوء وكأنها صديقتي :

__ هيا بنا لا داعي للخجل .

فوجئت بأسلوبها هذا ، هذه المرأة لا تتوقف عن إدهاشي .

يتغير صوتها علوا وهبوطا وتتغير تعابير وجهها من

الغضب للهدوء ، وتتبدل ملامحها من القسوة إلى اللين . كل

هذا تفعله ببساطة وكأنه شيئا عاديا كالتنفس مثلا!

لم أجد بُد من السماح لها بمصاحبتني ولكن لم أرغب في أن

أترك هالة وحدها مع زوج الثعالب ، فأمسكت يد هالة

لأصحبها معي ولكن الحيزبون اعترضت ، فربتت هالة على

يدي وقالت اذهبي ولا تخشي شيئا فأنا بخير .

دخلت غرفتي وتبعنتني المرأة وجلست على حافة الفراش ،

فاتجهت إلى الدولاب وأخرجت فستاناً بسيطاً وحجاباً مناسباً

له واحتميت من عينيها بدرفة الدولاب لأبدل ملابسي فأنا

خجولة جدا ولم أعتد على أن أبدل ملابسي أمام أحد .

وسمعتها تقول :

_ أعلم أنكِ تكرهيننا وتنظرين إلينا كمجرمين ولا أملك الآن

أن أغير نظرتك هذه ، الظروف هي التي جعلت دروبنا

تتقاطع بهذا الشكل المؤسف . أتمنى فقط أن تتفهمي دوافعنا

يوما ما .

لم أفهم لما تخاطبني بهذه الطريقة ، وما حاجتها الآن للعودة

لاستراتيجية الجزرة وابنتها في الطريق إلى هنا وكل ما

تريده قد تم !! لماذا تبدو وكأنها تعتذر ولماذا تريدني أن أتفهم

موقفهم !!

خرجت من وراء درفة الدولاب وأغلقتها بعد أن ارتديت

ملابسي ولكن لم أرتدي بعد الحجاب وقلت لها بتهكم :

_ كيف تتوقعين مني أن أتفهم تهديدك لي ولأسرتي

واستعدادك لقتلنا ؟ وكيف أتفهم استدراجك لابنتك لقتلها !

أظن أن المفهوم الوحيد هنا هو أنكِ امرأة تفعل أي شيء من
أجل مصلحتها ولا تزن أي وزن للحب والمشاعر الانسانية
التي تربط الناس ببعضها .

نظرت لي بحزن ، تعجبت جدا من هذه النظرة ! هل مازالت
تمارس ألاعيبها التعبيرية معي !!

_ لا أحد يشعر بما أشعر به ، ولا أحد يعرف الحب كما
أعرفه . لا تحكمني من خلال موقف واحد لا ترين كل جوانبه
. أنتِ تقفين عزيزتي في زاوية ضيقة جدا ولا ترين إلى ما
هو بارز من ناحيتك فقط ، أما باقي الزوايا لو رأيتها
ستعلمين أن كلامك هذا خاطئ جدا ورؤيتك للموقف قاصرة
ولم تصلي إلى الحقيقة بعد .

كنت أقف أمامها أمسك بحجابي في يدي وأسمع ما تقول
والحيرة تنسج شبكتها العنكبوتية حولي لتلتهم قدرتي على

التفكير الصحيح وتقدير الأمور . شعرت أن هناك شيء من

التصديق يزحف ببطء نحو قلبي ، شيء ما يخبرني أنني

بالفعل لا أعرف الحقيقة كاملة بعد وأن قطع البازل لم يتم

تركيبها بشكل صحيح حتى الآن ..

هي لم تزد عن ما قالتها وصمتت وكأنها ندمت على هذا

البوح الغريب . في تلك اللحظة انتبهت إلى أن حجابي لا

زال في يدي فخطر لي خاطر أن أخنقها به . ليقبل جيشهم

واحد . ولكن رفضت الفكرة سريعا فهي سخيصة من كل

النواحي . فالمرأة هي الأضعف جسديا والتخلص منها لن

يقلل الخطر الذي نحن فيه . كما أنها أعدل من ابنها خالد

الذي يبدو كالكلب المسعور المستعد للهجوم في أي لحظة

وهي من تقوم بتحجيمه عندما يبدأ في التهور ، والسبب

الأهم لسخافة الفكرة هو أنني لا أقو على أن أقتل برص على

الحائط فكيف أقتل امرأة أخرى وبطريقة الخنق التي تحتاج

لقوة وشجاعة ثم أن هذا الزاحف إلى قلبي يقول لي أنها
ليست بالشر المطلق الذي تخيلته ..

تبا لهذا كله ولتلك الليلة الثقيلة التي لا تنتهي . تنهدت
واتجهت إلى المرآة لأرتدي حجابي وأعود لهالة ، لا أحب أن
أتركها كثيرا وحدها .

لمحت المرأة تنظر لي من خلال المرآة ولأول مرة أتأملها
بتمعن وأتذكر ما قالته مريم عن انكسارها عندما واجهها
زوجها بحقيقة كبرها في السن وبأنها ما عادت ترضيه
كزوجة . وفي الحقيقة اتفق مع رأي مريم ، فهي تبدو امرأة
جميلة ممتلئة قليلا ولكنها أنيقة ، تشبه نازك السلحدار في
مسلسل ليالي الحلمية ذات الشخصية القوية والمشاعر
الجياشة الخفية . تلك النوعية من النساء اللاتي يتظاهرن
بالقوة ويفعلن الشر ببساطة ولكن بداخلهن قارة كبيرة من

الحب لم يصل إليها رحالة ولم يكتشفها إنسان ، فهي موجودة
في عمق ذاتها ، تراكمت عليها أطنان من الخذلان والوحدة
والألم ، كل هذا الألم حول تلك المرأة الجميلة لهذه الجريمة
التي قتلت زوجها وتسعى لقتل ابنتها وقتلي أنا وابنائي إن
لزم الأمر !

استيقظت من أفكاري على صوتها وهي تقول :

_ أعلم لماذا تنظرين إليّ هكذا، قرأت كل ما روته لكِ ابنتي .
بالمناسبة من الخطأ أن تتركي رسائلك كلها بدون حذف ، لا
تدريين في يد من قد تقع ، خاصة أنكِ من أولئك النساء اللاتي
يعشقن الأسرار ويسعين إليها . تعلمي أن تحذفي محادثاتك
أولا بأول حتى لا يتأذى أحد بسبب ثرثرتك .

ألتفت إليها وقد ضايقتني أسلوبها ووصفها لي بالثرثارة وعلى الرغم من أن كلامها صحيح ونصيحتها في محلها إلا أنه لم يعجبني أن تتحدث معي بهذا الأسلوب .

_لست هنا لتربيّتي واعطائي النصائح ، أنت هنا لأنه لا ضمير لك . وجودك مفروض عليّ ، وتهديدك لي لم يجف مداده فتوقفي عن دور الواعظ ، فالشيطان لا يعظ .

نظرت لي وابتسمت بعينيها . نعم رأيت ابتسامة في عينيها وشفتيها لم تتحرك ، أعجبتني ابتسامة العينين تلك ونويت إن خرجت من هذه الليلة سليمة أن أتعلمها فهي تعطي هالة من الغموض والجاذبية للوجه كالتي رأيتها في وجه هذه المرأة الآن .

_ لا لست هنا لإعطائك أي نصائح ، فأنتِ شابة جميلة

وذكية نوعا ما ، عيبك الوحيد هو فضولك . ماذا كنتِ

تتوقعين وأنتِ تبحثين

وراء سر كهذا ؟

القبض على النار مُحرق ومؤلم عزيزتي . لا بد ان تتعلمي

هذا .

_ مريم صديقتي وأحببتها كثيرا ، أردت مساعدتها ولكن كان

عليّ أولا أن أتأكد مما روته لي .

_ طالما أنك لم تصدقها فأنتِ لستِ صديقتها . هي صدقتكِ

ووثقت بكِ ولكنك لم تبادلها نفس الثقة ، هذا يحزنني .

_ يحزنك أنها وثقت بي ؟

_ نعم . لا أحب أن تتعرض ابنتي لخدلان وأنتِ خذلتها .

قلت بتهكم :

_ لا تحبي أن تعرضيها لخذلان ولكن تفضلين شقيقتها عليها

وتسعين لقتلها !

فجأة وجدتها تفقد أعصابها وتصرخ في وجهي :

_ من قال أنني سأقتلها ؟ كيف أقتل ابنتي ؟

_ لماذا تسعين إذاً وراءها ؟

_ لأنها ابنتي ، أريد مساعدتها وانقاذها .

قلت ساخرة :

_ حقاً ؟

نهضت من على الفراش ووقفت في مواجهتي وهي عاقدة

ذراعيها على صدرها وقالت :

_ نعم حقا . كما أنني لم أميز خالد وعلاء عنها ، هي التي
كانت تعشق الوحدة وتعيش في عالمها الخاص ولا تشاركنا
في أي شيء . ولو تعمقت قليلا في الأحداث التي روتها لك
مريم ستجدين مشهدا غفل عقلك عنه ولو كنت فكرت فيه
لقلب طاولة أفكارك رأسا على عقب .

_ أي مشهد ؟

_ مشهد استيقاظها من غيبوبتها في المشفى واهتمامنا بها ،
ويوم خروجها منها حيث كنت أصحابها لأعيدها إلى البيت .
ببعض التفكير المنطقي ستجدين أن هذا المشهد لا يتفق مع
أفكارك وأفكارها الخاصة بمحاولتنا قتلها . لو أردنا هذا لما
ذهبنا بها إلى المشفى من الأساس كانت الفرصة سانحة لقتلها
في ذلك اليوم عندما أغمى عليها كما روت لك .
قلت في حيرة وقد انتبهت فعلا لمنطقية ما قالته :

_ربما لم تأتكم فكرة قتلها إلا بعد أن ذهبتم بها إلى المشفى .

حركت يديها معبرة عن بساطة ما ستقوله :

_كنا نستطيع قتلها في المشفى ، حقنة هواء كانت ستنتهي

الأمر ولا دليل علينا فنحن من نقلها للمشفى ويشهد الجميع

باهتمامنا ومكوثنا بجوارها لساعات .

لم أجد ما أقوله فلذت بالصمت ، وتتهدت هي عندما علمت

أنني بدأت أفكر بطريقة صحيحة في منطقية الأحداث .

فأشارت لي لنخرج من الغرفة ، فتبعتها وأنا ما زلت ألتحف

بصمتي وخلية نحل من الأفكار تطن في رأسي طنيناً مؤلماً .

تطلعت هالة إلى وجهي وأنا أخرج وراء المرأة في هدوء

وإطراق ، ويبدو أنها رأت ألوان الطيف على وجهي ،

فنظرت في عيني وكأنها تسألني عما حدث ولكني لم أجبها

وجلست بجوارها وأنا أجر جر حبال الصمت حولي فعقلي

دخل دوامة أفكار مرهقة ولم يخرج منها بعد .

وبعد فترة صمت صاحبة أخرى ، أعلن جرس الباب عن

اعتلاء البطلة للمسرح وعلينا أن نرفع الستار ليبدأ العرض

...

الفصل الخامس

نهض خالد فور سماعه صوت الجرس ونظر من عين الباب
السحرية ، ثم نظر لأمه وأخيه نظرة ذات مغزى فظهر
الاضطراب والتحفز على وجهيهما . وأنا بدوري تعلقت
عيني بالباب انتظر ظهور مريم وعاد لقلبي خفقانه
واضطرابه وعنف دقاته . وهالة بدورها بدا عليها الترقب .
ودخلت مريم ..

عندما أتذكر مشهد دخولها الآن ابتسم ، خمسة أزواج من
العيون تتطلع إليها وهي تخطو ببطء وثقة كفارس يدخل
أرض المعركة ليبدأ آخر مبارزة له ..

فتاة عشرينية ، ذات طول متوسط وشعر أسود قصير نسبيا
وعين بنية ووجه مستدير ، تشبه كثيرا أمها . كانت ترتدي
بنطالا أسود وتي شيرتا مخططا بالأبيض والأسود وتحمل

على كتفها حقيبة سوداء صغيرة . كانت ملامحها هادئة ولا

تعبّر عن شيء ، تجولت بعينيها بيننا ونظرت لي ولهالة

وكأنها تريد أن تعرف أيننا هي ندى . فقلت بصوت مبحوح

من الخجل ورهبة اللقاء :

_ أهلا بكِ مريم

وجهت نظرها إليّ و ركزت عينيها في عيني دقيقة ولكنها

لم تنطق بشيء ، ثم سارت نحو أمها .

لم أكن أعرف ما الذي سيحدث في اللحظات القادمة ، ولكنني

كنت أعلم أنها ستكون لحظات لا تُنسى ...

واجهت مريم أمها ، كانت تقف أمامها بثبات الفريسة التي

ترى الصياد يصوب بندقيته نحوها وهي تقف على جرف

عالٍ ولا مفر من الموت . ولكن أمها لم تكن نظرتها لها

نظرة صياد ابدأ . كانت الفرحة والدموع في عينيها تعلن عن

حقيقة لم نعرفها في تلك القصة الغامضة ، وتضيف قطعة
بازل لم تكن موجودة من قبل . هذا الحنان الذي نبتت أزهاره
وأينعت وروته دموع عينيها يقول لي أنني لم أفهم شيئاً بعد ،
وأن للقصة وجهها آخر وتفاصيل أخرى ، وأن الذئب ليست
بذئاب وأن الضحية لم تكن ضحية . وأنني كما قالت الأم لم
أرَ إلا زاوية واحدة . كقصة العميان الثلاثة والفيل . كلُّ
يصف ما تلمسه يده فقط لهذا لم يعرف أحدا منهم أنه فيل .
أنا أيضا لم أتعرف على الفيل ..

مدت الأم يدها لتمسح على شعر ابنتها ، فأمسكت الأخيرة
يدها ومنعتها . كانت مريم تتصرف بجفاء مع أمها وتتنظر
إليها نظرات جامدة . أما خالد وعلاء فعلى عكس ما توقعت
أيضا ، لم يهاجماها أو يتشاجرا معها ، بل وقفا في صمت

ينظران إليها في راحة وهدوء . ما شعرت به من دهشة وما
تخبطت فيه من تساؤلات قرأته أيضا في عين هالة . هي
مثلي لم تتوقع هذا المشهد وذاك الاستقبال .

انتظرت أن يقولوا شيئا يميظ اللثام عن هذا اللغز . ولكن
صمتهم طال والنظرات طالت وكأننا في مسلسل هندي ، ولم
استطع أن أصبر أكثر من هذا فاستعدت دور صاحبة البيت
وقلت بهدوء :

__ تفضلوا اجلسوا .

وكانني ألقيت بحجر في مياه راکضة ، استفاق الجميع من
سحر اللقاء وقالت الأم بابتسامة لطيفة وهي تمسح دموعها :

__ لا شكرا حان موعد عودتنا إلى البيت .

ثم وجهت كلامها لمريم وقالت :

__ تعالي معنا لدينا الكثير لنتحدث عنه .

فمدت يدها لتمسك بيد مريم ولكنها تراجع للخلف وهزت
رأسها علامة الرفض .

حينها تذكرت أن مريم لا تتكلم فلقد نسيت هذا في خضم تلك
الأحداث .

_ لابد أن تأتي معنا ، هروبك خطأ ، لن نؤذيك ابدا .

هزت مريم رأسها مره أخرى وهي تنظر بتحدي لأمها ، ثم
أخرجت من حقيبتها هاتف وأشارت إلى أمها بأن تفتح هاتفها
هي الأخرى ، وبدأ حوار عجيب بين الأم وابنتها عن طريق
الرسائل . كان الانفعال باديا على مريم وهي تكتب والحزن
يرسم ظلاله على وجه الأم وهي تقرأ ، ونحن في المنتصف
نحرك رؤوسنا يمينا وشمالا كمن يحضر مباراة تنس ويراقب
الكرة ذهابا وإيابا دون توقف بين لاعبين محترفين .

كانت الأم هي أيضا تكتب ولكن واضح أنها تكتب ردود قصيرة وفي حالة دفاع وأن الهجوم كله كان من طرف مريم فبين كل رسالة وأخرى كانت تنتظر لابنتها بحزن وعتاب . كدت أجن وأنا لا أفهم ما يدور بينهما ، حتى كتبت أمها شيئا ، كانت أطول رسالة كتبتها الأم منذ بداية هذا الحوار الصامت ، قرأتها مريم وبدأ انفعالها يزيد وكتبت رسالة ، فترد الأم برسالة أخرى وتقرأها مريم فيهتز جسدها ونشيجها يعلو ثم تكتب رسالة أخرى بعصبية وتضغط على الحروف بقوة وكأنها تغرز كل حرف في قلب أمها ، قرأت الأم الرسالة وثار جنونها وألقت بالهاتف جانبا وهي تنتظر إلى ابنتها وتقول بانفعال :

_ كفى ، كفي اهانات واتهامات ، وكأنك لم تعرفيني يوما

ولم أكن لكِ أما !! كيف تتخيلين أنني يمكن ان أفكر مجرد

التفكير في قتلك !؟

نظرت لها مريم نظرة كراهية كانت واضحة جدا من خلف
دموعها ، فأشتعل غضبها أكثر وبدأت تتكلم بسرعة وتحرك
يديها في عصبية وبدا أنها نسيت وجودنا تماما ولا ترى في
الحجرة سوى ابنتها فقط ، فأطلقت كل قذائفها نحوها :

_ لم أقتل أبيك من أجلي ، بل من أجلك أنتِ ، لأحميكِ منه ،
لم أثار لكرامتي كما تقولين بل تأرت لبراءتك . في تلك الليلة
الرهيبة التي واجهته فيها بخيانته لي وقال كل الكلمات التي
سمعتها والتي قتلتني بها وجرح كرامتي وأهانني ، شعرت
بأنني لا بد أن أردد له الصاع صاعين ، إن كان يراني امرأة
فقدت أنوثتها ، فكان يجب أن أريه أنني لم أعتبره ابدا رجل .
لهذا عندما زادت معاملته لي جفاءً واشتدت إهانته لي قررت
أن أنتقم منه ، وفي المواجهة الأخيرة و في نوبة غضبي
وانكساري صرخت في وجهه أنه لم يكن رجل ابدا ، وأنه

كان لي كل عام عشيق ، حاولت كسر رجولته فقلت له وأنا
أنظر في عينيه بتحدي:

" ألم تسأل نفسك يوما لماذا لا يوجد واحد من ابناءك يشبهك
أو يحبك ؟ "

كنت أعلم أن هذا السؤال سيصيبه في مقتل وقد كان . أصبح
كالمجنون ثار وهاج كعادته ، كنت أعلم أنه أغبي من أن
يحاول التأكد من كلامي ، كنت أعلم أنه سيبدو كالحيوان
الجريح بعد طعنه في رجولته . تطاول عليّ وضربني ،
هرع كلا من علاء وخالد للدفاع عني فضربهما ، لم يصدقا
ما قلت ، كانا يعلمان أنني أشرف من أن أخون أبيهما وأني
قلت هذا في نوبة غضب لأنتقم منه وأرد له الصاع صاعين
، كانا يعرفانني جيدا ، ولكنه لم يعرفني ابدا ، لهذا صدق
كذبتني ، تحول الأمر لمشاجرة كبيرة ، كانت لحظات رهيبة

وعندما وجد أن خالد وعلاء أقوى منه وتكاثرنا عليه أخرج
مسدسه ، كنت في هذا الوقت تقفين بعيدا تسمعين وترين كل
ما يجرى. وعندما اشتبكنا معه أخذت في الصراخ بهستيرية
، كان كل شيء جنونيا وفقدنا جميعا عقولنا ، حتى أخرج
مسدسه وأطلق النار وهددنا فتوقفنا عن الحركة ، ولكن
تراجع حتى وصل إليك وأمسك بك ووضع السلاح في رأسك
وأنت لم تتوقفي عن الصراخ ، ثم جذبك حتى غرفة المكتب
وهو يقول بجنون وكأنه يهذي ، طالما أنها ليست ابنتي
ستكون عاهرتي ، سأحرق قلبك عليها كما خدعتني بها وبهما
طوال تلك السنين . سأجعل ابنتك عاهرة مثلك وأغلق الباب
. هرعنا بكل قوتنا نحو الباب لفتحه ، كان صراخك يعلو
ويعلو ونحن نحاول تحطيم الباب حتى استطعنا كسره ، هجم
عليه اخوتك ولم يبالوا بالسلاح الذي بيده فأطلق النار فأصيب
علاء في قدمه ولكنه لم يتراجع ، في تلك اللحظة سقطت أنت

في حالة إغماء فأمسك علاء بيديه وأخذ خالد في لكمه في وجهه وأنا أمسكت بفتاحة الخطابات وطعنته بها في قلبه قبل أن يطلق الرصاصة الأخيرة التي أصيبت بها الخادمة التي جاءت من المطبخ على صوت الرصاص . وانتهى كل شيء في لحظات . وتوقف الزمن بعدها ولم ندر ماذا نعمل ! ماذا كان بيدنا أن نعمل بعد هذا سوى أن ننفذك و ننفذ أنفسنا ؟ جثتان على الأرض وأربعة أرواح تتعذب . هذه هي حصيلة تلك المعركة المجنونة . سحبنا الجثتين إلى حجرة الخزين وحملناك إلى غرفتك وأزلنا الدماء كلها ، ولكنك استيقظت واتصلت بنا مرارا ، فجننت إليك وفوجئت بك تتحدثين معي وكان ما حدث من ساعتين لم ترينه ولم تسمعي به ، وعلمت أن بك شيئا غريبا ولكن الوقت كان يركض وكان لا بد من أن أعود لأخويك ولكنك ذهبت إلى غرفة الخزين ورأيت جثة أبيك فصرختي وصرختي حتى بح صوتك وفقدته وسقطت

في غيبوبة أخرى . هذه المرة طالت غيبوبتك اسبوعين ، قال
الأطباء أنك تعانيين من صدمة عصبية وفقد ذاكرة جزئي .
عقلك مسح تلقائيا تلك الجزئية الخاصة باعترافي الكاذب
لأبيك ثم محاولته الاعتداء عليك واطلاق الرصاص ، كل هذا
عقلك قام بمسحه ثم أعاد ترتيب الأحداث كيفما اتفق لتصبح
مرتبة ومنطقية بالنسبة له .

أنظري ، واتجهت إلى حقيبتها وأخرجت منها عدة أوراق
قدمتها لها وهي تقول :

_ هذه تقارير الأطباء حول حالتك ، اقرئيها ، ستجدينها كلها
تتحدث عن اصابتك بالغيوبة و بفقد ذاكرة جزئي وفقد النطق
نتيجة صدمة عصبية . ليت عقلك حذف أيضا مشهد جثة
أبيك ، لا أدري لما احتفظتِ بتلك

الصورة البشعة ؟

ربما لأنك أنتِ ايضاً تمنيتِ موته وسعدتِ به لهذا احتفظ
عقلك به ومسح الجزء الذي يرفضه في تلك الليلة المشؤمة .

أخذت مريم تقرأ الأوراق التي قدمتها لها أمها ودموعها
كالسيل لا تتوقف وجلست وعينيها تلتهم المعلومات التي بها
وهي في حالة صدمة . ثم رفعت رأسها لأمها بعد أن أنهت
قراءة التقارير .

فأكملت الأم كلامها :

_ كان يجب أن أخبرك بما حدث ، والذي رفض عقلك
تصديقه فأنكره . مستحيل أن أفكر في أن أوذيكِ ، أنتِ ابنتي
، قطعة مني ، بحثت عنكِ لأحميك ولأكمل علاجك ولأعيدك
إلى نفسك وإلينا ، أعلم أن ما حدث كان رهيباً جداً ولم
تتحمليه .

قالت هذا وركعت أمامها وامسكت كتفيها وهزتها بقوة وهي

تقول بانفعال :

__ ما فعلناه كان ضروريا من أجلك ومن أجل حمايتك ، لا بد

أن تفهمي هذا وليس من أجل أمواله و ثروته كما تظنين .

نعم أنا أخطأت ولكن من منا لا يخطئ ، هل كان يجب أن

أُجلد وأُصلب من أجل كذبة ؟ وهل كان هذا الحيوان يجب أن

يعاقبك من أجلها ؟ تصرفت برعونة وأندم على هذا ،

فأغفري لي أرجوك .

نظرت مريم لأُمها من بين دموعها ثم تهاوت بين ذراعيها .

وأنا أنظر إليهما في تأثر وهالة كانت تراقبهما في صمت

وأخويها ظلا على حالهما من الهدوء والصمت .

طالت فترة بكائهما حتى قام علاء ووضع يده على كتف
مريم . فرفعت رأسها ونظرت لأخيها الذي مد يده ومسح
على شعرها بحنان وهو يقول :

_ اشتقت لكِ حبيبي . انتهى الخوف . ليس بيننا خوفا بعد
اليوم .

فنظرت له بامتنان وحب .

ومسحت أمها على وجهها ونظرا لبعضهما دقيقة ثم قامت
الأم وجلست بجوار ابنتها وهي تأخذ منديلا من حقيبتها
وتمسح دموعها .

نظرت نحو مريم فوجدتها تنظر لي فقلت بخجل :

_ أعتذر لكِ مريم ، لم اكن الصديقة التي تستحق صداقتك .

ابتسمت مريم وعينيها لازالت تتلأأ بالدموع وحاولت أن
تقول شيئا تعلقنا جميعا بفمها وهو يحاول أن يتكلم ، كان

لسانها ثقيلًا عاجزا عن الكلام لأنه كان يحمل أطنانا من
الحزن تمنعه الحركة ، ولكن بعد كلمات أمها المؤثرة بدا أن
مريم قد تخففت من أعباء حمل كاد يدمرها ، الآن علمت أن
أمها وشقيقها لم يقتلا أبيها من أجل ثروته أو من أجل خيانتته
لأمها ، بل من أجلها هي . ضحوا من أجلها بكل شيء
وكادوا يصبحون أعناق تتأرجح في مشنقة لولا ذكاءهم في
إخفاء الأمر . كانت محاولات مريم للكلام مشجعة ، خرج
صوتها ضعيفا ومتعتعا ولكنه أسعدنا وكأن أم كلثوم تغرد
بيننا ، لم أتمالك نفسي من الفرحه فهطلت دموعي ، وأمها
كانت فرحتها لا يمكن وصفها وأخويها بدت السعادة عليهما
وتعانقا جميعا في مشهد رائع ، كان مهرجانا من الفرح يملأ
حجرة الصالون التي نجلس فيها ، لازالت تحتاج لوقت
وتدريبات ليعود صوتها أكثر وضوحا وكلامها أكثر يسرا

ولكن أن يعود لها صوتها في حد ذاته أشعرتني بأن فضولي

لم يكن عبثاً ، ففي النهاية أصبح لفضولي فائدة رائعة ..

وفي خضم تلك الفرحة والعناق والتهنئة لمحت وجه هالة

واحسست بأنها تفكر في شيء ما . أعرف تلك النظرة عندما

تحتل وجه صديقتي . فاقتربت منها وسألتها بصوت خافت :

_ في ماذا تفكرين ؟

_ في تلك الاحداث التي ذكرتها الأم

_ ألم تصدقها ؟

نظرت لي نظرة ذات مغزى ولم ترد .

ثم تنحنحت هالة وقالت :

_ هل ممكن أن أسأل عن شيء ؟

التفتنا إليها جميعاً فقالت :

_ كيف استخرجتم تصريح الدفن للأب وماذا فعلتم بجثة

الخدمة ؟

قال علاء :

_ أنا استخرجت تصريح الدفن ولم أجد صعوبة في هذا

عندما علم الطبيب الذي ذهبت إليه أن والدي عمره سبعون

عاما أعطاني التصريح دون أن يكشف على الجثة ، أما

بالنسبة للخدمة فسوينا الأمر مع أهلها وانتهى الموضوع .

_ كيف سويتم الأمر مع أهلها ؟

نظر علاء إلى أمه وكأنه يستنجد بها أو يسألها ماذا يقول .

نظرت الأم نظرة متفحصة إلى هالة وترددت لحظة ثم

حسمت أمرها وقالت :

_ حسنا سأجيبك . أخبرناهم أن زوجي حاول الاعتداء عليها

فدافعت عن نفسها وأطلقت عليه الرصاص ولكنه استطاع

أخذ السلاح منها وقتلها ومات الاثنان ، اراحتهم فكرة أن
ابنتهم ماتت وهي تدافع عن شرفها والتفاصيل الغير مقنعة
الباقية تكفل مبلغ نصف مليون جنيه بها ، أظن هذا تعويضا
كافيا لهم .

ثم تنهدت ونهضت وهي تقول :

__ وأظن أننا أطلنا الزيارة كما قلت من قبل وعلينا الخروج
من حياتكم الآن ليعود لكم هدوءكم وأمانكم .

قالت هالة :

__ هل ستتركونا هكذا ببساطة بعد أن علمنا بجريمتكم ؟

قالت الأم بلهجة حادة :

__ أي جريمة ؟

__ قتل والد مريم

_ لم تكن جريمة ، كانت دفاعا عن النفس كما سمعتِ ، ولا
أعتقد أنكما ستفعلان شيئا فأنتما لا تملكان دليلا على أي شيء
وما رويناه يمكن أن ننكره بكل بساطة .

_ والرسائل التي بين ندى ومريم ألا تعتبر دليلا ؟

_ كانت مزحة بين صديقتين ، لا تعدي الأمور عزيزتي
علينا وعليكم .

نظرت إلى هالة بغیظ وقلت لها بصوت خافت :

_ ما بكِ ؟ هل تريدين منهم أن يقتلوننا ؟

_ لا ولكن هناك شيء لا أفهمه .

_ وما هو ؟

ولكن هالة لم تجب ونظرت إلى مريم ، ثم ابتسمت في هدوء

وقالت :

_ لا شيء ، ليس بالضرورة أن نفهم كل شيء . بعض
الجهل نعمة .

قال خالد :

_ هيا بنا ، الوقت تأخر كثيرا .

فوجئت بمريم تتقدم نحوي وتعانقني بقوة وهي تهمس في
أذني " شكرا " قالتها بصعوبة ولكنها كانت واضحة كفاية
لأشعر بسعادة طاغية ، سعادتني مركبة من أحداث رائعة .
أنني رأيتها وأن صوتها يعود إليها وأنها سامحتني على ما
فعلته وأنها عادت إلى أهلها . يا لها من ليلة هائلة .

مسحت بيدي بقايا دموع على جانبي وجه مريم وأنا أقول لها
مازحة :

__ هذه العيون الجميلة بكت كثيرا اليوم ، لم أكن أعلم أن
لقاءنا سماءه مليئة بكل هذه الغيوم . في المرة القادمة لنتقابل
تحت مظلة .

ابتسمت هي وابتسمت لها بحب وتعانقنا ثانية .

اتجه شقيقاها إلى الباب وهتف علاء باسمها ونادى على أمه
، ليستعجلهما فتركنتي مريم واتجهت إلى هالة وحيثها
وسلمت عليها وابتسمت لها في ود . نسيت أن أخبركم أنني
حكيت لمريم كثيرا عن هالة ، وتعرفها جيدا من خلال كلامي
عنها وبالتأكيد عندما رأتها حزرت أنها هي .

خرج الشقيقان من الباب وتبعتهما مريم وكانت الأم تأخذ
هاتفها الذي ألقت به في ثورة غضبها ووضعته في حقيبتها ثم
حملت اللاب توب واتجهت نحوي ومدت لي يدها للسلام
وهي تقول:

_ اتمنى أن تكوني الآن قد تفهمتِ كل شيء وسامحتنا على

تصرفاتنا القاسية معكِ ، فلم يكن أمامنا غير هذا للوصول

لمريم واستعادتها . وتعلمين الآن أننا لسنا كما كنتِ تتخيليننا

هزرت رأسي متفهمة وأنا اسلم عليها بحرارة وأقول :

_ كلنا تضطرنا الظروف لفعل ما لم نكن نتوقع ابدا أن نفعله.

وبعض الأخطاء تكون رغما عن إرادتنا ودون تعمد منا .

يسعدني أن مريم معكم الآن وفي أمان .

_ شكرا لكِ ندى ، أعدتِ لنا حياتنا .

طربت لكلماتها كثيرا واسعدني أن أكون سببا في جمع شمل

تلك الاسرة ورأب صدعها حتى ولو عن طريق الفضول

وبدون قصد .

تركت أم مريم يدي واتجهت إلى هالة لتسلم عليها هي
الأخرى وابتسمت لها بود وهي تحيها ، بادلها هالة التحية
والسلام والابتسامة .

وقالت الأم :

_ يؤسفني أن نتقابل في وقت عصيب كهذا ، إن شاء الله
لقاءنا الثاني يكون أفضل ، انتظر زيارتكما لنا في المنصورة

_ إن شاء الله . تشرفت بمعرفتك

ثم انحنى المرأة قليلاً للأمام وسألت هالة :

_ هل حقاً أبلغت الشرطة قبل مجيئك إلى هنا ؟

ابتسمت لها هالة وقالت وهي تنظر في عينيها مباشرة :

_ وهل حقاً والد مريم هاجمها وحاول الاعتداء عليها ؟

لمعت عين المرأة بابتسامة ، عيناها كانت تبتسم كالمرّة
السابقة . وظلت عدة ثوان تنظر لهالة ثم قالت بصوت هامس
ولكنني سمعته :

_ لو مريم كانت تحدثت معك أنتِ وليس ندى أعتقد أننا لم
نكن لنصل إليها أبدا وكنا فقدناها للأبد .

ابتسمت هالة وقالت :

_ فلنحمد الله على أن هذا لم يحدث .

هزت المرأة رأسها وقالت :

_ نعم .

ثم نظرت إلى عندما لاحظت أنني سمعتها وقالت :

_ عفوا لم أقصد أي إساءة

ثم ابتسمت في ود واتجهت إلى الباب وخرجت منه وأغلقتة

وراءها .

التفت إلى هالة وأنا أقول بدهشة :

_ ما معنى هذا ؟

لوحت لي بيديها وهي تجلس على الأريكة وقالت :

_ لا شيء ، لا تشغلي بالك .

ابتسمت وأنا أجلس بجوارها وأقول :

_ ليسوا مجرمين عزيزتي بل ضحايا ، كانوا في حالة دفاع

عن النفس . المجرم هو من يخطط لجريمته وليس الذي

يضطر لارتكاب الجريمة .

لمعت في عيني هالة نظرة ساخرة لم أفهمها ، ولكنني كنت

مرهقة جدا ولا أريد أن أدخل في حوار آخر أو أفهم شيئا

جديدا تلك الليلة .

_ هل تعلمين إلى ماذا اشتاق الآن ؟

_ إلى ماذا ؟

ارحت ظهري للوراء وأغمضت عيني ثم قلت بحنين وأنا

أشرد بخيالي :

_ ابتسامة الموناليزا ..

الفصل السادس

رن هاتف هالة معلنا عن مكالمة ، اخرجت الهاتف من حقيبتها وبدأ حوار لم أفهمه :

_ نعم .. شكرا لكم .. هل هي بخير ؟ نعم بالتأكيد .. غدا إن شاء الله .

واغلقت الهاتف وظهر على وجهها علامات الراحة وتنهدت في هدوء وهي تعود بظهرها إلى الوراء وتسترخي تماما .

نظرت إليها بتعجب ، انتظر منها تفسيراً ، ولكن سمعنا صوت جرس الباب فنهضت لأرى من وأنا أشعر ببعض القلق ، وجاءتني فكرة سوداء بأن أسرة مريم عادت لتقتلنا .

نظرت من كوة الباب (العين السحرية) ولدهشتي رأيت مريم ! فتحت الباب سريعا ، وملامي تنطق بالبهجة

والدهشة معا . كانت مريم تقف دامعة وتبتسم في خجل ،

أردت أن أعانقها ولكن خجلت أن أفعل ، برغم صداقتنا
الكبيرة على الفايسبوك إلا أنني عندما قابلتها في الواقع لا
أعرف لمّ أشعر بالخجل ولا أستطيع أن أتصرف معها على
طبيعتي ، ربما بسبب ما فعلته وظهوري لها كصديقة سيئة لا
تحافظ على الأسرار وتتدخل في مالا يعنيهها . أشرت لها
بترحاب لتدخل ووقفت هالة أيضا مرحبة وهي تبتسم لها في
ود ، دخلت مريم وجلست بجوار هالة وهما ينظران
لبعضهما ، ثم سمعت مريم تقول بكلمات واضحة لا تعتعة
فيها :

__ شكرا لكِ هالة ، خطتك نجحت .

ثم أردفت بحزن وهي تنتهد :

__ هم في قبضة الشرطة الآن .

نظرت ببله إليهما وفغرت فاهي من الدهشة وهالة تربت على
يد مريم وتقول لها ، بل شكرا لك أنت لثقتك بي وشجاعتك
وقدرتك المبهرة على التمثيل ، لم أتخيل أنك ستقومين بدورك
على هذا النحو الرائع .

لم استطع التحمل أكثر من هذا وقلت بعصبية :

_ لا أفهم شيئاً، أرجوكم فهموني !!!

نظرتا لي كلتاها ، وقالت مريم بهدوء وحزن ، أجلسي يا
ندى ، وسنشرح لك كل شيء .

جلست وأنا كلي أعين وأذن وقلب ينبض بقوة .

_ بعد ما فعلتية ، ووصولك إلى أسرتي وكشفك لأمري ،
وعلمهم أنني ما زلت في المنصورة ، أصبح وصولهم إلي
مجرد مسألة وقت ، وبك أو بدونك كانا سيصلان إلي ،
خاصة بعدما قرأوا رسائلنا وعلوموا أنني أعيش مع امرأة

مسنة تعيش وحدها بعد سفر أولادها وتسكن على بعد شارع
أو شارعين فقط من المشفى ، فهذه المنطقة بها عدد قليل من
العمارات السكنية . كلمتني هالة من خلال صفحتك وشرحت
لي كل شيء ونبهتني أيضا إلى أنهم سيعلمون مكاني إن أجلا
أو عاجلا .

نظرت إلى هالة التي كانت تجلس وتستمع في هدوء وقلت :

_ مهلا .. متى تكلمتِ معها ؟

قالت هالة :

_ عفوا مريم دعيني أوضح لها هذه النقطة .

ثم وجهت كلامها نحوي وقالت :

_ بعد رجوعك من المنصورة يا ندى ، وبعد أن رويتني لي

كل ما حدث ، ثم استخدمتِ هاتفي لإرسال رسالة إلى مريم .

كعادتك تركتِ صفحتك مفتوحة في هاتفي وكل الرسائل

عليها ، استأذنت منكِ وذهبت إلى العمل ، وهناك جاءتنى
فكرة أن أتواصل أنا مع مريم وأحاول أن أصل معها إلى
خطة لحمايتك وحمايتها في نفس الوقت ولأفهم منها أكثر
طبيعة أمها وشقيقها ، ولأن صفحتك كانت بين يدي أسرتها
أيضا ، أرسلت رسالة مقتضية إلى مريم شرحت فيها
باختصار الموقف وعرفتها بنفسى وطلبت منها أن تحادثنى
على صفحتى أنا لأن صفحة ندى مراقبة . ثم حذفتم تلك
الرسالة بعد إرسالها فورا حتى لا يتسنى لهم قراءتها . طبعا
كان يوجد احتمال كبير ألا تستجيب مريم وألا توافق على
محادثتى فى حسابى ، ولكن لأنكِ حدثتها عني فهي قبلت أن
تتواصل معي من خلال صفحتى الأخرى ، ثم فى صفحتى
قالت لي تحسبا للأمر فستكلمني هي أيضا من صفحة جديدة
خشية أن يكونوا قد هكرو حسابها . اعجبني ذكائها وشعرت

بأننا معا سنصل إلى حل لتلك الأزمة ، وبالفعل تحادثنا طوال

هذين اليومين . هل وضح لك الأمر الآن ؟

قلت وأنا أنظر لهالة بعتاب .

_ نعم . ولكن لمّ لم تخبريني ؟

_ لأنه كان يجب أن تكوني على طبيعتك ، لو شعروا بأي

شك ، كان الأمر سيختلف . المهم انتظري للنهية وأترك

مريم تكمل لك الأحداث .

نظرت إلى مريم فعادت تروي :

_ علمت من هالة كل التفاصيل قبل أن تخبريني بها يا ندى

، ولكن كان لا بد ألا تعلمي بهذا ، لنتحرك نحن في تلك

الساعات العصبية بحرية وأمان . أولا فعلت ما اقترحته عليّ

هالة وهو أن أترك المنصورة ، تحدثت مع أمي وهي المرأة

التي أعيش معها حاليا واضطرت لإخبارها بكل شيء

وبأنهم علموا مكاني ولا بد أن أسافر إلى الجزيرة ، ولكنها
صممت ألا تتركني وجاءت معي وأقمنا في أحد الفنادق مؤقتا
ثم اتصلت بهالة وأخبرتها أنني الآن في الجزيرة واتفقنا على
أن نتقابل .

_ مهلا ، كيف وثقتِ في هالة بتلك السرعة لدرجة أن
تصدقينها في كل ما قالته لكِ ؟ ألم يخطر على بالك احتمال
ولو صغير

بأنها تفودك إلى مصيدة ؟

_ نعم ، هذا الاحتمال دار في رأسي ، ولكن أسلوبها
وطريقتها في الكلام مع كلامك السابق عنها جعلوني أثق بها
، كما أنها لو حقا معهم ما كانت اتفقت معي على أن نتقابل
في قسم الشرطة .

جحظت عيني وأنا أقول من فرط الدهشة :

_ الشرطة؟!_

_ نعم يا ندى ، لم يكن هناك من سبيل لحمايتك سوى الذهاب

إلى الشرطة وأن أروي لهم كل شيء ، هذا ما توصلنا إليه

أنا وهالة ، وهذا هو السبب الرئيسي لقدومي إلى الجيزة ،

خشينا أن يكون لهم أحد المعارف في شرطة المنصورة ،

لهذا فالبلاغ كان يجب أن يقدم في محافظة أخرى بعيدة عن

أيديهم ، ولأنك تعيشين هنا وهم يرونك كخيطة هام جدا

يقودهم إلي ، فالجيزة أصبحت أرض المعركة الأخيرة .

ولكن كان لا بد ألا يعرفوا بأي شيء ، ولهذا لم نخبرك .

نظرت بخجل إلى الأرض وأنا أهز رأسي متفهمة .

أكملت مريم بحزن وعيناها تدمع :

_ في قسم الشرطة قدمت بلاغا رسميا أتهم فيه أسرتي بقتل

أبي ، ورويت لهم كل شيء وهالة قامت برواية الجزء الذي

يخصك يا ندى وتهديدهم لكِ وحصولهم على هاتفك ، كان ضابط الشرطة متعاوننا جدا معنا ، وبتحريات سريعة قام بها ونحن في مكتبه ، علمنا أن الخادمة توفيت في نفس اليوم ولكن في بلدتها المسماة بالسنبلاوين ، وهذا طبعا مريب جدا ، ولكن لأختصر لكِ هذا الجزء فما قالته أمي بخصوص اتفاقها مع أهلها واعطائهم نصف مليون جنيه صحيح وهذا جعلهم يستخرجون لها شهادة وفاة مزورة باعتبارها توفيت في حادث عارض ببلدتهم وتم غلق موضوعها على هذا ، طبعا قتلوها لأنها رأت جريمتهم بالتأكيد أو سمعت شيئا ما كان يجب لها أن تسمعه ، وهم لا يريدون أي شهود عليهم .

اتفق معنا ضابط الشرطة على أن انتظر حتى يصلوا إليكِ ويحاولوا الوصول إليّ عن طريقك . وكنا على يقين من أنهم لن يؤذونكِ حتى يحققوا هدفهم .

_ وما حدث بعد هذا كله كان مجرد استدرج لهم ؟

_ نعم ، طلبت منك هالة أن ترسلي رسالة تشرحين فيها كل

شيء لي وهي تعلم أنهم سيقروونها ، وأجبتك أنا برسالة قلت

فيها أنني لا أستطيع أن أساعدك بشيء ، هذا لنطمئنهم أولاً

بأنني لن أتحرك لفعل شيء ضدهم ، ثم في نفس الرسالة

طلبت منك ابلاغ الشرطة لإنقاذ نفسك ، وهذا هو ما دفعهم

لأن يصلوا إليك سريعاً قبل أن تبلغي الشرطة بالفعل لم

يخشون بلاغك فليس بيدك دليل قوي على جريمتهم ، ولكن

خوفهم الحقيقي هو أن تصل الشرطة إلي قبلهم عن طريقك

أو عن طريق صفحتي أو بتحرياتهم الخاصة وأنا الخطر

الوحيد الحقيقي عليهم ، وما حدث بعد هذا من موافقتي على

المجيء لبيتك يا ندى ثم مجيء هالة كان بعلم الشرطة ،

التي أعطتها ميكرفونا صغيراً ليتتصتوا ويسمعوا كل ما يدور

واعطتني واحداً مثله في حالة ما تم كشف ميكرفون هالة .

_ كل ما دار هنا منذ مجيء هالة سمعته الشرطة ؟

_ نعم ، وكانوا موجودون في شارع بيتك و ينتظرون

اللحظة المناسبة للقبض عليهم ، ولحمايتك أنتِ وأولادك

وهالة كان لا بد أن اتظاهر بأنني صدقتهم ووافقت على

العودة معهم ، بهذا لن تكون لكم أنتم قضية ويتركوكم بسلام

، فالشاهدة الوحيدة أصبحت معهم وليس لديكم أي دليل

ضدهم ولن تفعلوا شيئاً ، خاصة أنهم قتلوا أبي من أجلي كما

قالوا وبالتالي فأنا في صفهم الآن كما ظنوا . خرجت معهم

من شقتك وكانت الشرطة في انتظارهم ، فلم يرغبوا أن

يقبضوا عليهم في بيتك خوفا من حدوث أي اشتباك يتضرر

فيه أحدا منكم .

كان كثير عليّ جدا أن أستوعب كل هذا ، ولكن أردت أن أعرف ما الذي فعلته ريا وعصابتها عندما وجدوا الشرطة في انتظارهم ! وسألت مريم هذا السؤال ، ويبدو أن هالة أصابتها عدوى الفضول فرأيت علامات الاهتمام على وجهها في انتظار إجابة مريم :

_ لم تتوقع هذا ، فوقفت غير مصدقة ، ونظرت لي بعتاب شديد وقالت أنها لم تفكر أن تؤذيني أبدا ، وأنها تحبني حتى بعد أن أبلغت عنها .

ورأيت الدموع تنهمر من عين مريم ، فربت علي ظهرها بتعاطف ، فالموقف صعب جدا عليها بالتأكيد ، مريم فقدت أسرتها كلها وهي من قدمتهم بيدها إلى السجن . أي حرب تدور الآن داخلها وأي سلام ممكن أن يأتي بعد هذه الحرب المدمرة .. !

وفجأة أشتعل مصباح في رأسي بقوة أربعة آلاف وات !
"كيف تتحدث مريم بطلاقة هكذا وقد كانت بكماء منذ دقائق
!! "

_ مريم متى عاد لك صوتك ؟ لا أظن أنه عاد إليك في هذا
المشهد المسرحي الذي رأيناه بعدما بكيت في حضن والدتك !
ابتسمت مريم من خلف دموعها ابتسامة خفيفة وهي تقول :

_ عفوا ندى فهذه هي الكذبة الوحيدة التي كذبتها عليك ،
صوتي عاد لي وأنا في المشفى وقبل هروبي من أمي ، ولكن
فضلت أن أظل مدعية البكم لكي لا يعتبرونني خطرا عليهم
ويسعون لقتلي واستمررت في ادعاء البكم عندما حملني
الرجال من الشارع ، حتى لا يسألني أحد عن شيء . وكان
من المستحيل أن احادثك هاتفيا خشية أن تسمعي المرأة

الطيبة التي أعيش معها فتعرف أنني كذبت عليها وأنني لست
بكماء .

_ وهل لا زالت لا تعرف ؟

_ أخبرتها بكل شيء كما قلت لكِ وقبل أن نأتي إلى الجيزة ،

هذه المرأة بها حنان لو وزع على أهل الأرض لكفاهم ،

تقبلت كذبي عليها ولم تبالي بالخطر حين رويت لها قصتي ،

احتوتني وراعنتني كما لم تفعل أُمي التي انجبتني .

_ البعض يجيد الحب ، والبعض لا يعرف من الحب إلا

اسمه . الحمد لله أن القدر أرسلها لكِ في الوقت المناسب .

_ نعم الحمد لله .

واغرورقت عين مريم ثانية بالدموع ، ولكن هذه المرة

عانقتها ، ولم أتركها حتى هدأت ، كما كانت تفعل معي هالة

.

هالة صديقتي التي خدعتني وخشت من لساني الزالِق فأخفت
عني كل هذه الأحداث الجسيمة . سأحاسبها فيما بعد على هذا
. نعم سأقبلها وأعانقها وأشكرها لأنني لو علمت أي شيء من
هذا لكنت بالفعل أفسدت الأمر كله.

كنا نحن الثلاثة نجلس في بيتي ، كمثلث دافئ الأضلاع ، كل
زواياه حنونة ، ضلعين كانا في قمة الذكاء والحنكة ، وضلع
في قمة الذكاء والحنكة أيضا ، ماذا توقعتم أن أقول؟! .

أست أنا السبب في اظهار الحقيقة وتلك النهاية العادلة ؟
عليكم الاعتراف بأن حماقتي هي التي أعادت لمريم حياتها
بعد أن قتلتها ريم . والاعتراف بالحق فضيلة .

هنا انتهت تلك الليلة الرهيبة ، وعادت مريم إلى فندقها مع
تلك الأم الرائعة ، وبقيت أنا وهالة بعد أن نزعت الميكرفون

الذي زودتها به الشرطة ، وجلسنا نجتر تلك الأحداث

ونضحك تارة ونتكلم بجدية تارة ، حتى الصباح .

ولأكمل لكم ما حدث بعد هذا أخبركم أن مريم لم تترك أمها

الجديدة واشترت شقة أنيقة في القاهرة بعد أن تسلمت ثروتها

وعاشت فيها معها وعادت إلى دراستها لتنتهي تلك السنة

النهائية ولكن في جامعة عين شمس بالقاهرة لتبتعد تماما عن

المنصورة وكل ما حدث فيها وبدأت تستعيد نفسها وحياتها

ورغبتها فيها شيئا فشيئا ولكنها أيضا لم تنسى أسرتها

وتكفلت بكل مصاريف محاميهم وكانت تزورهم بانتظام ،

بالتبع اعترافها ضدهم صنع شرخا كبيرا في علاقتها بهم

ولكنها لم تتخل عنهم ، خاصة عن أمها والذي وضح بالفعل

أنها لم تفكر في إيذاء ابنتها أبدا ولكن تخطيطها لقتل الأب

واشتراكها في قتل الخادمة والذي اتضح أن خالد تسرع

وقتلها قبل عودة الأب إلى البيت لأنه رآها تتنصت عليهم

وسمعتهم وهم يتهايمسون حول خطتهم على الرغم من أن الأم كانت قد طلبت منها أن تعود إلى بيتها ذلك اليوم كما فعلت مع الحارس بحجة أن شركة رش المبيدات ستأتي لترش الفيلا كلها ، ولكن يبدو أن الخادمة نست شيئاً ما فعادت لأخذه وحينها سمعتهم وكان ما كان ، وبعد أن تخلصوا منها انتظروا عودة الأب في مواعده المعتاد للغداء وكانت خطة قتله بسيطة وهي ضربه على رأسه ضربة قوية ثم الادعاء بأنه سقط من على الدرج ، ولكن الأب لم يسقط من الضربة المفاجأة التي وجهها له خالد ، وقاومهم وحدث عراكا كبيرا بينهم انتهى بسقوط الأب قتيلا في النهاية ، ولكن بسبب الدماء الكثيرة واصابة جثة الأب بهذه الإصابات المتعددة اضطروا إلى التحايل والرشوة لاستخراج تصريح الدفن دون الكشف على الجثة ، والتي تم استخراجها بعد كشف جريمتهم وتشريحها وكشف كل تلك الأحداث في المحاكمة .

استمرت المحاكمة فترة ، كان وقعها ثقيلًا جدًا على مريم ،
ولكن لم نتركها تلك الفترة أبدًا .

واستمر مثلث الصداقة بيننا وزادت روابطه قوة وأضلاعه
تماسكا ، هالة ومريم وأنا ...

تمت بحمد الله

